



أعلام الشعر العربي الحديث

يعقوب أفرام منصور



جبران خليل جبران

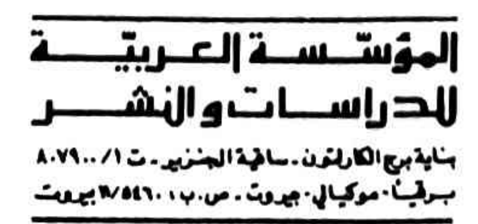


المكتبة العالمية



جبران خليل جبران


منشورات وتوزيع المكتبة العالمية - بغداد
شارع السعدون - هاتف ٨٨٨٩٢٥٩

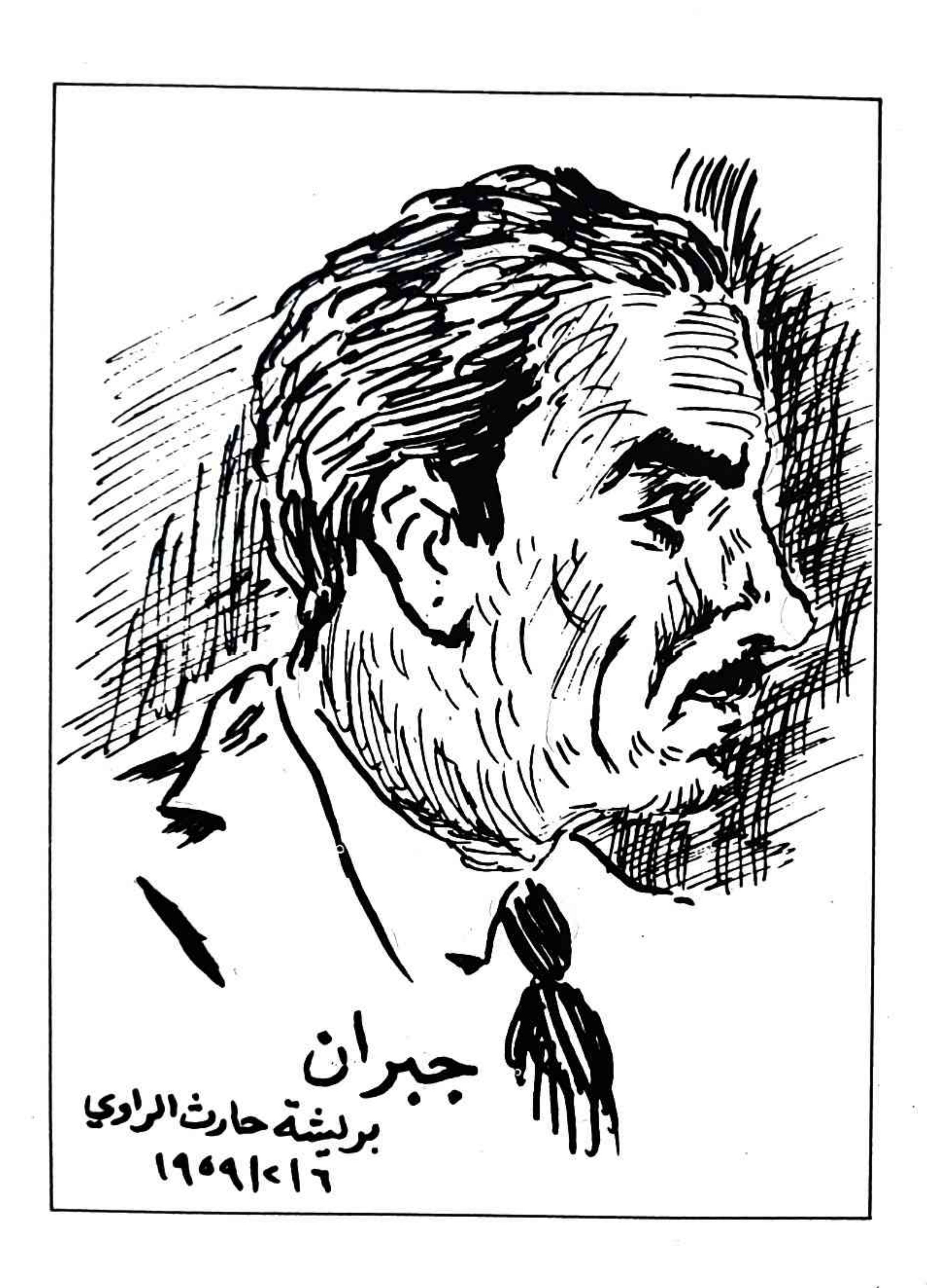

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً - موكيالي - بيروت - ص.ب ١١/٥٤٦٠ بيروت

جبران خليل جبران

تــأليف
يعقوب أفرام منصور

الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م

مطبعة الانتصار - خالد الدربولي - بغداد


جبران
بريشة حارث الراوي
١٦/٢/١٩٥٩

جبران كما كتب عنه لبنانيون وأميركية(*)

. انصرمت ثلاث سنوات على وفاة جبران خليل جبران النابغة، وصدر عنه كتاب الأستاذ ميخائيل نعيمة، فجاء نـاقصاً من بعض الوجوه، كانعدام أي ذكر لعلاقة مي بجبران و«حلا الضاهر» حبيبته الأولى، كما أن المؤلف ــ الذي أحبّ وأجلّ كثيراً ــ قد وقع في أخطاء ومتناقضات، سآتي على ذكرها في صلب الموضوع. واعتقادي أن نعيمة، لو كتب كتابه بعد عشر سنين مثلاً أو أكثر، لجاء إنتاجه أقرب إلى الكمال، ولسلم من بعض المثالب.

تلقّفت كتاب نعيمة من المكتبة قبل تسع سنوات باشتياق لا مزيد عليه، وقرأته قراءة متأنّية واعية، لكنّني تركته من يدي لا كما تناولته؛ إذ كثيراً ما توقّفت عند بعض الجمل والأقوال التي وضعها المؤلف تخيلاً عن لسان جبران، وساءلت نفسي مراراً: أيقول جبران مثل هذا القول؟ أصحيح هذا.. أهذا ما عناه جبران؟! أهذا هو جبران الحقيقي كما وصفه نعيمة؟

(*) نشر هذا البحث في عددي آب وأيلول من مجلة «الورود» البيروتية لعام ١٩٥٨.

ظلّ هاتف يصرخ في أعماقي قائلاً: لا . . ليس هذا هو جبران الحقيقي الذي عقد عنه المؤلف فصلاً عنونه (نبأ كاذب). وظل تفسير هذه العبارة يحزّ في قلبي طويلاً، حتى تناولت يراعي في السابع من آذار سنة ١٩٥٢، وحررت إلى نعيمة رسالتي الثانية له، أستفسره معنى (النبأ الكاذب)، فردّ عليّ كما يلي: «أما النبأ الكاذب، فأعتقد أني شرحته شرحاً وافياً في كتابي عن جبران، ويذهلني أن شاباً لبيباً مثلك لم يدرك القصد منه. عد إلى الفصل ثانيةً، واقرأه على مهل. ولست أقدّر أن معناه يفوتك»[1].

وعدت إلى الفصل، وقرأته بكل تمعّن، فلم ترتح نفسي إلى ترجمة العبارة الانكليزية «I AM A FALSE ALARM» التي فسّرها نعيمة: «أنا نبأ كاذب». وعدم ارتياحي ذاك عائد إلى سببين: أوّلهما أن لا علاقة لتفسير نعيمة بالموضوع الروحي (قطعة عن المحبّة) الذي كان جبران يبحثه آنذاك مع المؤلّف، وثانيهما ركاكة الترجمة وتفاهة معناها. فلا يقول أحد عن نفسه: «أنا نبأ كاذب» إذ أنها لا تعني شيئاً.

ولقد عثرتُ مؤخراً في كتاب «رسالة المنبر إلى الشرق العربي» لفيلكس فارس، ما يدعم عدم ارتياحي، ويؤيد اقتناعي بعدم صحة ترجمة تلك العبارة، فيقول فيلكس: «ويذهب ميشا في تفسير هذا القول مذهباً غريباً. . أحتى في ترجمة كلمة (ALARM) ترتكب الخطأ يا ميشا، فيقودك هذا الخطأ المادي إلى هذا الحكم الصارم على

---

(١) رسالة ميخائيل نعيمة مؤرخة في ٢١ آذار ١٩٥٢.

أخيك؟ أفليس معنى هذه الكلمة (النذير) الذي ينبّه إلى خطر يتوقّعه؟.. إذا كان جبران قال لك هذه الكلمة، فلا يمكن أن يكون ما دفعه إلى الهتاف بها، ما توهّمته فيه من ندم على كذب، وتبكيت ضمير على خداع.. إذن لم يكن هتاف جبران ناشئاً عن نوبة عصبية اجتاحت دماغه فجأة، بعد أن وقف مليّاً أمام جلال الطبيعة، فأخجله الخداع في نفسه، وما دام هنالك علاقة بين هتاف جبران والحديث الذي تقدم، فما معنى الذهاب إلى سبب بعيد، لا علاقة له بالموضوع؟ وفي الحادث نفسه تفسير يفرضه المنطق فرضاً، إذا فُهِمت كلمة (النذير) كما يجب أن تُفهم».

ويمضي فيلكس في دعم وشرح المراد بهذه العبارة التي أخذها نعيمة ــ مع الأسف ــ على محمل غير صحيح وحسن، لكنّ فيلكس ــ على ما أعتقد ــ لم يتوصّل إلى كل الحقيقة بل إلى نصفها. وهنا أسأل: ما ضرّ الأستاذ نعيمة، لو أنه تمهّل، وانتظر تفسير جبران نفسه لهذه العبارة، كما كان ينوي حسب قول نعيمة: «لذلك عندما حاول جبران أن يتوغل في تشريح النبأ الكاذب، غيرتُ مجرى الحديث، وأسرعت في السير». وفي هذا الصدد، يقول مارون عبّود في كتابه «جدد وقدماء»: «ليته سمع ذلك الاعتراف، وحلّ جبران من خطاياه بعد التثبّت من توبته وندامته، وجاءنا بالتفاصيل، ولم يتركنا فيما تركنا فيه من حيرة». أجل، حبّذا لو فعل نعيمة ذلك! إذن لوفّر على نفسه عناءً، ولأزاح جبران ذاتُهُ النقاب عن مضمر المعنى. إذ أنّ في صرف جبران عن قصده تجنياً على جبران ونعيمة، وأنا أعتقد أن سوء فهمه

هذه العبارة قد سبب عقدة نفسية في نفس الأديب الكبير، جعل منها نقطة نسج حولها كثيراً من الخيوط الواهية التي لا تدعمها الحقائق، ولا النصوص، ولا شهود عيان، ولا أقوال جبران ذاته، والتي شوّهت روعة الكتاب وجماله في كثير من صفحاته. إن نيّة جبران أن يشرح معنى تلك العبارة، لدليل واضح على خلوّه من تأويل واعتقاد نعيمة فيه أولاً، وعدم فهمه من قبل نعيمة ثانياً.

لكن مهلاً! مهلاً يا أستاذيَّ نعيمة وعبّود! فهذا كتاب «بربارة يونغ» في جبران، أمامي، أقرأ في صفحته الثانية عشرة هذا النص الانكليزي:

«I AM A FALSE ALARM. I DO NOT RING AS TRUE AS I WOULD».

هنا ينجلي الحق، وهنا تُحل المشكلة، فكلمة (False) لا تعطي معنى (كاذب) فقط، بل تُفسّر أيضاً (غير حقيقي)، وكلمة (Alarm) تعني هنا (جرْس) أو (قرْع). فتكون ترجمة القسم الأوّل من هذا الكلام: (أنا جرْس ـ أو قرْع ـ غير حقيقي) وقد عرضت هذه الجملة على أحد الانكليز، فأيّد صحّة ترجمتي. والذي يؤكّدها أكثر، هو استدراك جبران بقوله شارحاً (أنا لا أقرع ـ أو أرن ـ بصورة مضبوطة كما أردت ـ أو كما أود). كما أن بربارة يونغ تفسّر هذه الجملة بقولها: «شعر أنه مقصّر إلى حدّ ما في عمل كلّ جليل كان يُتَوَقَّعُ منه».

إنَّ نهج نعيمة، بسرده بعض أقوال ما فاه بها جبران ذاته، بل وضعها هو بأسلوب روائي على لسانه، كما تخيّلها هو، نهج غير مصيب، وكان الأجدر به والأمثل أن يتحاشاه في كتاب يضعه عن سيرة أعزّ وأقرب رفيق من رفاق حياته. فأسلوبه ذاك يصلح أن يكون لرواية أو قصّة مختلقة. وكان الواجب الأدبي يحتّم عليه إمّا سرد أقوال جبران كما سمعها منه بالذات، أو من مصدر ثقة، وإمّا عدم سرد بعض الحكايات والوقائع والأقوال، كما في حديث جبران مع ميشلين في غرفته في باريس. فهذه أشياء خيالية، ليس ما يثبت صحّة حدوثها ودقّة حروفها وكلماتها، ولا يستطيع أكبر نبي إثباتها غير جبران نفسه. فهل جبران حكى لميخائيل تلك الحكاية، أم هي ماري هاسكل، أم هي ميشلين التي خرجت من غرفة جبران، ولم ترجع إلى أحد، والتي أرجّح أن نعيمة لم تقع عليها عينه؟ الجواب: لا.

وهنا يقول فيلكس فارس: «إن التي تصل إلى العشرين وما بعدها وهي محتفظة بعفافها، لا تبذل العفاف لقاء قصيدة أو مقال.. فإذا كانت حادثة جبران مع ميشلين واقعية، فما هو المرجّح الذي أخذ به المؤلف ليقول بالأغواء، ويوقف ميشلين في مطالبتها غاويها موقف العذراء المهتوكة العرض؟». وأنا هنا مع فيلكس، فيجوز أنّ ميشلين هي التي أغوت جبران، فزلّ وانجرف بتيّار محاسنها الفتاكة، كما وصفها نعيمة ذاته، وقد لم يرها بعينه ــ وإذ ذاك يكون هذا عيباً آخر ــ وقد يجوز أنها أغوته بتهافتها عليه، فأخطأ وزلّت معه في ساعة من فيضان العاطفة، وهذا أمر طبيعي عند معظم المراهقين،

خصوصاً في أميركا. وبعد، فليس من ينكر في جبران فوران العاطفة وتأجّجها، تلك العاطفة التي لولاها، لما خلق تلك الروائع والآثار الخالدة تأليفاً ورسماً، فقال عنه مارون عبّود في كتابه «جدد وقدماء»: «لا أشك أبداً في أنّ دم جبران حار جداً، وإن زعمت غير ذلك، فرسومه تكذّبني. وإن تياراته الفكرية، في أدبه وفنّه، تتجه دائماً صوب الحب الذي يراه الحياة كلّها. ومن قرأ أوّل حرف وآخر حرف مما كتبه جبران ـ حتى يسوع ابن الإنسان ـ رأى الحب كنجمة القطب، وإليها تتجه سفينة جبران. إن نعيمة يروي حديثاً يعجز عن إثباته بالوثائق التي هي مقطع الحق الأول. أمّا ما ذكره الأستاذ ميخائيل ـ ولا أستبعد وقوعه، إذ ليس جبران أعظم من داوود ـ ففيه جموح وتعدٍ يؤاخَذ عليه.. ليست (ميشلين) شخصاً وهمياً في حياة جبران. فهناك صورة لها بريشة جبران محفوظة في متحفه، وأذكر أن تاريخها سنة ١٩٠٨. إنّ ميشلين شخص من لحم ودم، مرّ في طريق جبران، ولكنه أصبح ـ كما أظنّ ـ تحت قلم الأستاذ نعيمة شخصاً روائياً. فكتاب نعيمة في جبران ـ وإن كان ذا قيمة فنّية رفيعة، فهو كروايات ديماس، يختلط فيها حابل التاريخ بنابله، أخرجه الأديب الكبير بشكل رواية بدأها بوع وع، وختمها بغرغر، أي من المهد إلى اللحد. وهدف نعيمة في كتابه إعلامنا أنّ جبران بشر مثلنا ـ آمنّا وصدّقنا. ما رأيت نعيمة يملك وثيقة تؤيد ما زعم، ولا هو شاهد عيان، بل لا يملك آخر مقطع من مقاطع الحق وهو (التواتر). فإن الذين خالطوا جبران ولابسوه، ردّوا على نعيمة بعنف وقسوة. خاف نعيمة، كما ظهر من مقدمة كتابه، أن

يصير صديقه جبران أسطورة أو نبياً، فأرانا أنَّ جبران إنساناً لا غير. وإلاَّ فما معنى هذه الحكايات عن فلانة وعلانة؟ الأوروبيّون يذكرون المرأة التي أحبّها الأديب، ليبيِّنوا أثرها في فنه وأدبه. ولم نَر شيئاً من هذا في كتاب نعيمة. فميشلين وفلانة أشباح، لا علاقة لها قط في الأدب الجبراني، وقد يكون لهنَّ علاقة، ولكنَّ شيئاً من هذا لم يُذكر. فكأنَّ الغاية القصوى من سرد الحوادث بيان أنَّ جبران أحبَّ حباً خسيساً، وإعلان أنَّ جبران (نبأ كاذب) ».

وهذا حديث آخر، وضعه نعيمة على لسان جبران في ص ٩٦: «بلى، لقد جنيتُ عليكِ يا ميشلين عندما أشركت في حياتي امرأة سواكِ، فرضيت أن أستدرّ جيبها وعقلها (يقصد ماري هاسكل) حين أنا أستدرّ ألمكِ ولحمكِ ودمك. ولقد كذبتُ عليكِ عندما سألتني عن الامرأة التي مدّتني بالمال لأدرس في باريس، فأجبتك أن ليس هناك امرأة». كيف يضع نعيمة هذا الكلام عن لسان جبران، إن لم يسمعه منه، وليس من حكاه له؟! فهو كما نلاحظ غير مسنَد.

وكلام آخر: «فكان يمرّ بالناس ويراهم عناكب». كيف يستطيع نعيمة إثبات أن جبران كان ينظر إلى الناس تلك النظرة؟!

وهذيان آخر: «ما هو المجد؟ هو أن تشرب زيت السمك ممزوجاً بحامض الفينيك ولا تتقيأ!» هل كان نعيمة مع جبران في باريس، فسمع منه هذا الهذر؟!

وحديث آخر: «ما لكِ ولأبي وإخوتي؟ عندكِ جبران وكفى..

ومع من ألعب؟ مع أولاد الصينيين والأرلنديين أم السوريين؟ ما أكثر السفهاء والأشقياء بينهم». ممّن سمع نعيمة هذا الكلام؟

ما هكذا تُكتب السيرة، ولا هكذا تكون الدقّة والأمانة في سرد الحوادث، وإيراد الكلام. أنا لا أصدّق من أقوال جبران الواردة في كتاب نعيمة إلا ما سمع المؤلّف من فمه، كقوله في ص ٢٥٨: «وأنا ما أزال أقول إنَّ الفنّ، وإن ميّز بين الجمال والشناعة، هو من أقرب السبل إلى الله.. إلخ»، وقوله: «ميشا.. ميشا! نجّاني الله وإيّاك من المدنية والمتمدّنين، ومن أميركا والأميركيين.. إلخ»، وغير هذه الأقوال المسموعة والمبثوثة في الكتاب.

يقول فيلكس فارس: «لقد رأى نعيمة في جبران شخصين منفصلين، أحدهما العبقري الفذ في إلهامه وتفكيره، وثانيهما رجل الدولار والشهوات إلخ. أما نحن، فإنّنا نرى جبران إنساناً بلغ مدرجاً عالياً من سلم الارتقاء. فليس هو بالنبي المعصوم، ولا هو أيضاً بالتاجر المتأمرك. فحياة جبران لم تكن إلا مراحل طال جهاده فيها طلباً للحق والجمال، يهدي إليهما نفسه، ويهيب بالناس إلى اتباع السبيل للوصول إليهما. لقد جاء نعيمة بوصف لجبران، اتخذه من تعبير رؤيا رآها، فهو حتى من الرؤى؛ يريد أن يثبت عليه ميولاً عالمية وشهوات مضلّلة».

ويبدو أننا نستطيع إدانة نعيمة لعدم دقّته في ذكر الحوادث، وصدق الحديث، مستدلّين بكلامه: «وأنا مدين لها (ماري) بالكثير

مما صوّرته في هذا الكتاب من علائق جبران معها ومع ميشلين»[٢]. فكلمة (صورته) في هذه الجملة، لا توحي الدقة والحقائق الناصعة. إذ التصوير شيء، وسرد أو إيراد الحقائق شيء آخر.

لقد راقني من كتاب فيلكس فارس، الإخلاص للحق ولجبران. فهو لم يكتب مدفوعاً بالعاطفة فقط، بل سلّط أضواء عقله على قلبه، فخطّ من الحجج والبراهين والتحليل العميق، ما سيبقى تحفةً في النقد الأدبي، والباع الطويل. فقال في ص ١٩٢: «ولو أن جبران كان متعطّشاً إلى أمجاد العالم وملذّاته، لكان سعى كما سعى ميخائيل نعيمة على الأقل، ضارباً في مناكب الصنائع والتجارات، معرّضاً حظّه لخطرات الحظوظ، غير أن جبران بقي معانقاً ريشته، وقابضاً على قلمه، فهو لم يكسرهما، بل لم يحطّم على الأقل هذا القلم العربي الذي كان شـؤ ماً على أجناده، ذلك لأن جبران كان طمّاحاً إلى ملذّات وأمجاد لا تُنال بالمال، ولو أنه أراد ثراءً، وطمع إلى التنعُّم بملذات الدنيا، لكان حوّل عبقريته إلى استغلال الحياة المادية في بلاد يتوصّل مخترع تجميد الشوكولاتة فيها إلى ربح الملايين».

لكنّ فيلكس لم يكن كلّه ثورة ونقمة على ميخائيل. فهو يعترف له بالفضل والمقدرة أيضاً، كقوله في ص ٢٢٣: «لقد شاءت العناية، يا صديقي ميشا، أن يتّصل قلمك رأساً بعقلك الباطن، فمحا بعبارة واحدة جميع ما حبكه عقلك لإقامة هيكل روايتك، وقد نشرت عليها

(٢) «جبران خليل جبران» لميخائيل نعيمة، ص ٢٧١، الطبعة الثانية، دار صادر.

ـ ولا نكر ـ بروداً زاهية من روائع الحكمة وبدائع الفن. لقد تداعى هيكل الرواية، يا ميشا، لأنه أُسّس على أخطاء وأوهام؛ غير أن البرود التي تجلله لا تزال خفّاقة في أجواء الأدب العربـي، بل في أجواء الأدب العالمي».

والآن وقد ظهر حديثاً كتاب الدكتور جميل جبر عن جبران، فإنّ لي عليه بعض المآخذ كما رأيت فيه الحسنات.

جسم الكتاب لا يليق بروحـه؛ فورقـه ليس جيداً، وكـذلك طباعته. أمّا صوره، مع أنّ معظمها لم يُنشر في كتاب سابق، فلم تكن جيدة الإخراج؛ كما أن صورة جبران في ص ١٧٨ ليست، كما كتب تحتها، في آخر حياته، بل يغلب أنها التُقطت في مرحلة إخراج «الأجنحة المتكسرة» أو «المواكب». فكتاب نعيمة بطبعه وورقه أفضل من كتاب جبر.

أمّا مادّة الكتاب، فدسمة، زاخرة بكل طريف وخفي، وقد راقني منه الاستدلال بالاقتباس من رسائل جبران إلى جميل المعلوف ومي والريحاني وغيرهم. والذي يُشكر عليه الدكتور جميل هو تنقيبه عن شخصية «حلا الضاهر» ـ التي عدّها الكثيرون سلمى كرامة الحقيقية، بـطلة «الاجنحة المتكسّرة»[٣] ـ وتوفيقـه في العثور عليهـا. لكن

---

(٣) استناداً إلى ابن عم جبران وسميّه المدعو خليل جبران وقريته جين جبران في تقديمها لمسرحية جبران (لعازر وحبيبته)، لقد دونت ماري هاسكل في مذكراتها لعام ١٩١١ ـ بشأن كتاب «الأجنحة المتكسرة» ـ إنكار جبران ذلك التفسير

لم يرقني تقيّد المؤلف بما جاء في كتاب نعيمة، وخصوصاً سرد تلك المحاورة المزعومة في باريس في غرفة جبران، بينه وبين ميشلين، كما وردت في الصفحات ٨٤ ـ ٨٦، ولكن بشيء من التصرّف. إن هذا لخطأ فاضح في التأليف، كان على الدكتور في الآداب أن يتجنّبه، متعظاً بخطأ سابقه الأستاذ نعيمة. كما لم يرقني تبيان مدى تأثير نيتشه في عقلية جبران، وتأثير (كيتس) و(بلايك) و(رودان) في أدبه وفنه.

وهنـــا أود أن أقول بكلّ صراحة واحترام لنعيمـــة وجبر: إن عبقرية جبران واستعداده الفطري، بشرقيته ورهافة شعوره وصوفيته الأصيلة، كانا في غنى عن (نيتشة) أو (كيتس) أو (بلايك) أو (رودان). فشأن جبران الكاتب والمفكّر والشاعر كان سيغدو حتماً ما بلغ حتى لو لم يقرأ نيتشة وكيتس، ومنزلة جبران الرسّام كانت ستمسي جزماً ما بلغت حتى إذا لم يزر رودان ولم يطّلع على آثار بلايك. جبران كان سيضحى ذلك الفذ بدون حاجة إلى نيتشة وبلايك. إذ المعلوم أنّ دلائل نبوغه بانت واشتهرت قبل أن يعرف هؤلاء الغربيين. فانصبابه على قراءة هذين، لا يعني أنه اغترف من معينهما أو قلّدهما ـ كما يبدو جلياً من آثاره. فروحية جبران لم تكن كروحية نيتشة، وولعه ببلايك

القائل بأن سلمى كرامة اسم مستعار لشخصية حقيقية أخرى، إذ قال لها: «ولا تجربة واحدة في الكتاب تخصّه ولا شخصية نقلت عن نموذج ولا حادث استقي من حياة واقعية».

لم يجعل منه مقلداً قط[٤]. فميل جبران إلى العزم والقوة، كان من أجل النهوض بالضعيف الخائر العزم، بخلاف ميل نيتشة إلى الإلحاد، ومحق الضعيف، وتأليه القوي. وعقيدة جبران، وأسلوبه التصويري، إن كانا قريبي الشبه بعقيدة وأسلوب بلايك، فهما قد كانا كذلك قبل أن يعرف بلايك. إلا أننا ـ نحن الشرقيين ـ فينا عيب كبير، وهو انتقاص شخصيتنا والحطّ من قدرها ومواهبها، كأننا نسينا أن الشرق نبغ أولاً، وأنّ كنوز النفس الشرقية ـ في روحانيتها وتمرُّدها على الباطل، وصفائها للحق ـ تفوق ذخائر النفس الغربية، حتى أن كل الأنبياء والرسل الذين جاءوا العالم، كان الشرق منبتهم ووحيهم وهدفهم ونطاق رسالتهم.

ولعمري، هل يُقارَن كتاب «النبي»، الذي كله محبة وحق وصفاء وجمال، بكتاب نيتشه «زرادشت» الذي كله بغضاء وحقد وشراسة وقسوة وشطط، بل وكفر أحياناً؟ وهل يُقارَن جبران العاقل الهادي الرزين، بنيتشه الذي كان يقول لمن يصافحه: «فلنغتبطْ إنِّي إله!»؟ كما قال: «ليست الرحمة إلا مذلّة، سواء أصدرت عن إله أم إنسان. إنَّ من يرفض المعونة لأشرف ممّن يبادر إلى النجدة».

---

(٤) بعد ٢١ عاماً من تحرير ونشر هذا المقال، أورد الدكتور نذير العظمة في «المعرفة» الدمشقية لآذار ونيسان ١٩٧٩ قائلاً: «ما من ريب أن جبران تأثر ببلايك في شعره ورسمه وكتابته، وقد تأثر بأمرسون ونيتشه، إلا أن جبران كفنان أو شاعر أصيل استطاع أن يعطي تجاربه طابعاً جبرانياً منفرداً، وأن نظريات التأثير والتأثر لا تعني السرقة أو المسخ أو التقليد بقدر ما تعني تفاعل القدرات والعبقريات».

وهو القائل كذلك: «لقد مات الإله مقتولاً برحمته» والقائل: «لا تسرق، لا تقتل.. ذلك تعليم كان مقدساً في غابر الأزمان، فكان الناس يسجدون لهذا التعليم مطأطئين الرؤوس، خالعين النعال. أفليست السرقة والقتل من قوام الحياة نفسها؟ أفما قتلت الحقيقة ذاتها بتقديس هذا التعليم؟».

أما جبران، فقال: «اجعلني، يا ربّ، فريسة الأسد، قبل أن تجعل الأرنب فريستي». وقال: «اجعل، يا ربّ قوة أعدائي مضارعة قوّتي، كيلا تكون الغلبة إلا للحق».

لم يعجبني من الدكتور جبر نعت جبران (بالتاجر) في ص ١٤٨. إن هذا اللقب لا يستحقّه جبران الذي كان بسيطاً في مأكله ومشربه وملبسه، والذي خلّف كل ثروته لبشرِيّ والفقراء. ولم يعجبني منه عدم تطرّقه إلى موضوع (النبأ الكاذب) في كتاب نعيمة، وعدم دحضه، وهو الذي لا بدّ أن قرأ كتاب «بربارة يونغ»، إما بالانكليزية أو بالعربية كما ترجمه حبيب مسعود، كما علمت.

وراقني من كتاب جبر قوله عن كتاب «دمعة وابتسامة»: «ولقد كان عليه، لو أنصف، أن يقدّم مجموعته، وهي أوّل نسمة من عاصفة حياته، إلى حلا الضاهر». كما راقني قوله في ص ١٢١: «عرف جبران بحبّه الروحاني، حتى في أبعد انطلاقاته الهياميّة.. إلخ»، وقوله في ص ١٧٠، المأخوذ من رسالة الريحاني إلى نعيمة: «والواقع أنّ جبران عرف الحبّ على أنواعه، وعرف المرأة على أنواعها، غير

أن الطـابع الروحـاني غلب على ميلـه، فوقـاه التعثّر في حمـأة الموبقات».

ولقد سرّني أن أطالع، في القسم الأخير من الكتاب، الفوارق العديدة بين أدب جبران وبين أدب نيتشه، وبين نفسيّة الأول وبين نفسية الثاني. فجبران يعلن حرباً حامية على الشرّ أنّى وُجِد وكيفما وجد، بينما نيتشه يرحّب بالشرّ إذا ساعده على انتصار حيوية الإنسان.

وأنا لا أوافق المؤلّف مطلقاً في اعتبار نيتشه معلّم جبران، وأنّ يسوع جبران يختلف عن يسوع الإنجيل، لأنه ـ كما يقول ـ رآه من زاوية ما زال ضباب نيشته يغشى بلّورها.

ليقلْ عن جبران ما شاء المتقولون، ولينزعوا منه كلّ الصفات الحميدة التي اتّصف بها، وليجرّدوا منه وشاح النبوّة. إن كنتم تفهمون النبوّة بمعناها الوضعي، فجبران ليس نبيّاً؛ أمّا إذا أخذتم الكلمة على أساس أوسع من الاصطلاح، فاعتبرتم النبيّ إنساناً كالبشر، مصلحاً يحب الخير ويرسمه للناس ـ غنيّهم وفقيرهم، جاهلهم وحكيمهم، صعاليكهم وذوي المنزلة والجاه فيهم، فجبران نبـي ـ نبـي القرن العشرين، قرن الأسفاف الروحي، قرن التهالك على المادة، قرن فحيح الشهوات والخلاعة والمجون. أما إذا كنتم تبغون من جبران أن يرتفع فوق مستوى البشر، وذلك بصفائه من الخطيئة، فأنتم ترومون أكثر من طاقة الجنس البشري. فـداوود النبـي تلوّث بالخـطيئة، وسليمان النبـي تمرّغ في أوحالها حتى قمة رأسه. وهناك طائفة من

القدّيسين في المسيحية، كان ماضيهم ملطخاً بأدران الخطايا. وتلك مريم المجدلية، يعرف قصتها الجميع. فداوود النبـي، لم تُقْصِه الخطيئة عن زمرة الأنبياء، وسليمان النبـيّ ــ الذي تشك الكنيسة في خلاص نفسه ــ ما برحت هي ذاتها تدعوه نبيّاً. لقد ادّعى المتنبّـي النبوّة، وكفر المجنون نيتشه بقوله إنّه إلّه. أما جبران، فلم يفعل أو يقل شيئاً من هذا القبيل.

بعد فراغي من قراءة كتاب «بربارة يونغ» في جبران، قبل تسع سنين، كتبت رسالتي الأولى إلى الأستاذ نعيمة، مقترحاً عليه أن يكون مترجمه إلى العربية، لكن نعيمة أجابني بقوله: «أما كتاب «بربارة يونغ»، فاعذرني إذا لم أستطع أن أراه بعينك. فهو في نظري تشويه لجبران من حيث يقصد أن يكون تبجيلاً. إن إسراف المؤلّفة في (تقديس) جبران قد أوقعها في أخطاء كثيرة، وأفظعها أنها جعلت من جبران ــ على حد قول أحد أصدقائه الأميركيين ــ قدّيساً من الجص (Plaister Saint)»(٥).

فوقفت مشدوهاً أمام هذا الحكم القاسي على الكتاب وكاتبته. وارتأيت السكوت، على أن أعود إلى قراءة الكتاب ثانية، فقد يكون فاتني بعض الهنات والأخطاء في ساعات من فيضان الإعجاب والابتهاج الروحي، لكنّي عدت إليه، فلم أجد شيئاً من ذلك، قد يداني قول (برازبين) ــ أحد أعلام الكتّاب الأميركيين: «لو كنت من

(٥) رسالة ميخائيل نعيمة مؤرخة في ٣١ كانون الأول ١٩٥١.

المؤمنين برجوع المسيح إلى الأرض مرة أخرى، لأيقنت أنه عاد بشخص جبران خليل جبران»[٦].

جسم الكتاب أنيق جداً، يليق بمنزلة جبران الأدبية، وبكلماته المبثوثة في جنباته. وإخراجه فاخر يلائم روح المؤلّفة اللطيفة المخلصة المهيمنة على أجزاء الكتاب. وهو عندي سيكون ــ حتى صدور كتاب آخر عن جبران ــ أحب المؤلّفات وأصدقها في جبران دراسةً. فعند عودتي إليه مراراً، لم أجد ما يبرّر قول نعيمة فيه. إذ ليس ثمة إسراف في التبجيل أو التقديس، نظير مقال (برازبين) الآنف الذكر. ولماذا تريد بربارة يونغ أن تقدّس جبران؟ أهو قدّيس، أهو أميركي، أم هي عاشقته، أم هي لا تعرف قدراً للأدب الحي، وهي الأميركية المطّلعة على نشاط الأدباء الأميركيين، ومعظم الأدباء العالميين؟ الجواب: لا شيء، من هذا القبيل، بل إنَّ بربارة، ما دفعها للكتابة عن جبران بمثل ما كتبت، غير إخلاصها للحق الذي كان جبران يقدّسه، فقالت في مقدّمتها: . «أود أن أكتب بصورة سهلة ومباشرة، بقدر الإمكان، عن جبران الذي عرفت، الرجل بين أصدقائه، وفي محترفه أثناء العمل بالقلم والفرشاة بدون كلل، والذي كان أحياناً مستعداً للضحك والغناء؛ مع فهم سريع، وإدراك العمل الجيّد من قلم زميل عامل؛ ومع إصبع سديد ليشير إلى الإخفاق في تدوين الكلمة التي لا بدّ منها في الموضع الذي لا مناص منه. إنَّ

---

(٦) «جبران حياً وميتاً» لحبيب مسعود، ص ٤٠٨ ــ ط. سان باولو ١٩٣٢.

الكتابة بإماطة اللثام عنه، ليست مسألة إلقاء حوادث وظروف حياته وأهدافها أو تسلسل هذه الوقائع. فلا الحقائق، ولا مجموعة من الحقائق، ولا سرد الوقائع والتجارب، تستطيع إعطاءتصوير صادق لحقيقة جبران. إنّه واحد من الأدلّة النادرة على القوة العظيمة التي لا يمكن تسميتها.. كانت لي الغبطة بمعرفة جبران الشاعر والمصوّر لمدة سبع سنوات، حتى آخر لحظة من حياته، وأقرب ما يكون الصديق المحبوب. سبع سنين من الصداقة والعمل، كما قال: «كنّا شاعرين، نعمل سويّة باسم الجمال».

هذه هي الأميركية التي كتبت عن ذلك اللبناني، الأميركية التي لم تعرف جبران عن طريق اللقاء، ولا عرّفها به أحد المعجَبين. كلا، بل هي عرفته ـ كما تقول ـ عن طريق أشعاره ونتاجه. وكان موقف جبران خير معوان لها. فلقد أدرك أنّ غايتها كانت أن تكتب عنه، وأنّ الكتابة يجب ألا تتأثر بأي ولاء للصداقة. فأثناء حياته، عند عزْمها على السفر إلى مدينة قصيّة، بغية أن تتلو فصولاً من «النبي»، وتتحدّث عن مؤلّفه، كان يقول لها: «عندما تقفين أمام الناس، ينبغي أن تنسي أنكِ صديقتي».

ومن كلمات جبران الواردة في ذلك الكتاب، راقتني هذه إلى أقصى حد: «أن يُقال لك ما قد فعلتُ، لا ينبئك بما هو أنا».

والمؤلفة تورد حكايتين قصيرتين عن مدى تأثير جبران في نفوس الأميركيين الذين أرهقتهم الحياة الماديّة: فقالت امرأة مسنّة أضنتها تصاريف الدهر، بعد أن بحثت طويلاً عن كتاب «النبي»: «أريد هذا

الكتاب. إنه ليس كتاباً؛ إنَّه خبز وشراب للناس المتعَبين نظيري». وقال أحد أعلام القانون لبربارة: «أنا قانوني مذنب؛ لو كنت قد قرأت فصل «الجريمة والعقاب» قبل عشرين حولاً، لكنت الآن أحسن وأسعد حالاً، وأفضل مصدر استشاري للدفاع».

وتختم المؤلفة الكتاب بقولها: «لقد استقبلت أميركا جبران باستحسان مخلص سخيّ. أميركا سوف لن تنسى جبران. وفي كلية (كلورادو)، حيث برج كاتدرائية «شوف» التذكارية، حُفِرَت ـ على ناقوس زنته ستة أطنان ـ هذه الكلمات لجبران: «ليس الأمس إلا ذكرى اليوم، والغد حلم اليوم».

هذه لمحات خاطفة من كتاب بربارة يونغ في جبران، الذي لم يرضَ عنه الأستاذ نعيمة. وعندما كتبت إليه رسالتي الأولى، أقترح عليه ترجمته، لم أكن أعرف آنذاك أن نعيمة وبربارة على شبه جفاء. فبعد ذلك بزمن طويل، علمت أنَّ هناك، في عدد قديم من مجلة «المشرق» المحتجبة مقالاً، مؤداه أن نعيمة، بعد وفاة جبران، قصد بربارة، وطلب منها تزويده ببعض أسرار وخفايا حياة جبران الخاصّة، فلم تزوّده بشيء مما أنص بعد إلحاح، لأنها لا تعلم شيئاً عمّا يريد. وكان الأجدر بالأستاذ نعيمة ـ وهو المشهود له بسموّ الأخلاق ـ أن يتجرّد من رواسب تلك العاطفة نحو بربارة في معرض حكمه على كتابها حيث يتجلّى الإخلاص والصدق والأصول الصحيحة في كتب الدراسة والسيرة. كما يلوح فيه الاعتراف الضمني بتفوق الشرق في الروحانيات، وتقدير الغرب لنابغة شرقي، ظلّ بروحه نائياً عن إسفافهم

وماديتهم وتهالكهم. والتبجيل ـ ليس التقديس ـ الذي فيه يستحقه جبران بكل جدارة، وليس فيه أكثر مما أوردتُ. ومهما أطلت في شرح الكتاب، واقتباس بعض ما جاء فيه، فلا يسعني إعطاء القارىء صورة حقيقية عنه، بل الأجدر والأنفع أن يطالعه بنفسه، كما وضعته المؤلّفة، أو كما ترجمه حبيب مسعود. ولهذا، فأنا حينما أضع نصب عيني حكم نعيمة عليه، يتطرّق إلى نفسي بعض الشك في أن نعيمة قد قرأ الكتاب فعلاً.

وجدير بي أن أختم مقالي هذا ـ وقد توخيت فيه الإخلاص والصدق وكشف الحقائق ـ بأن أورد ما قاله الريحاني في جبران في كتابه «وجوه شرقية وغربية»: «وإني ـ ولا فخر ـ أعلم الناس بجبران المجاهد في سبيل حريّة الفكر والقلب والروح، وجبران الطالب الشهرة والعلى، وجبران الشاعر المصوّر، وجبران الفيلسوف الحكيم، وجبران المحب لوطنه لبنان. إنّي أعلم الناس بهذه الشخصيات المعزوّة إلى الفقيد العزيز. فقد أدّى جبران رسالته وكان فيها صادقاً، بليغاً، أميناً. فهو وكلّ محبّيه ومريديه جديرون بالتهنئة»[٧]. وقال مارون عبّود في كتابه «جدد وقدماء»: «إنّ جبران في تآليفه العربية لبناني محض، بل إقليمي حتى أسماء بعض أبطال قصصه وأماكنها، ولا بدّ للراغب في فهم جبران فهماً تاماً، من زيارة ودرس الإقليم الذي نشأ فيه، إذ يلمحه في كل مقال كتبه. جبران في هذه الكتب العربية من أعظم مفاخر لبنان الأدبية، أمّا في كتبه الانكليزية، فإنساني شامل،

---

(٧) «وجوه شرقية وغربية»، ص ١٣٢، دار ريحاني.

وهو فيها مفخرة الشرق كله»[٨]. وقال أيضاً: «أما أنت يا جبـران، يا عريس نيسان الذي غنّيته في مواكبك، فلا تقنط من رحمة تاريخ الأدب. إنّـك لحيّ في الكثيرين، وإن لم تتجمّـع عناصـرك كلّها في واحد»[٩].

ولا بدّ لي ههنا ــ وأنا العربـي الهائم بلبنان حباً وشغفاً، وبابنه البارّ جبران ــ لا بدّ لي من كلمة أقولها:

ما أجدر بلبنان، في هذه الأيام العصيبة المـوجعة[١٠]، أن يستعرض كلّ ما قاله نابغته الذي شغف حباً بلبنان خصوصاً، وبالشرق عموماً، فينبذ الغضاضات والأحقاد والقسوة. وأنا لا أصدّق أنّ لبنان سيعيش بسلام وطمأنينة، وسيدرك ويقدّر نابغته جبران حق الإدراك والتقدير، إلا عندما أشهد بعينيّ تمثاله في بيروت وبشرّي. وهذا لعمري أقل ما يستحقّ جبران.

وما أروع تثمين الدكتور فيليب حتّي لجبران، إذ قـال: «إن مـلايين الدولارات التي كسبنـاها في هجـرتنا، لا تسـاوي جبـران خليل جبران»[١١].

□ □ □

(٨) «جلد وقدماء»، ص ١٠٨.
(٩) نفس المصدر السابق، ص ٩٧.
(١٠) إشارة إلى أحداث الاقتتال الأهلي عام ١٩٥٨ وخلال الفترة ١٩٧٥ ــ ١٩٨٤.
(١١) «جلد وقدماء» لمارون عبود، ص ١٢٩، دار الثقافة، بيروت ١٩٥٤.

صوت المعلم ـ أثر جديد لجبران(*)

منذ سنين، وأنا أضيف إلى مكتبتي بين الفينة والأخرى، كتب جبران خليل جبران الانكليزية أصلاً، والمترجمة من العربية إلى الانكليزية.

وقبل شهور وصلني كتاب «الأجنحة المتكسرة» مترجماً إلى الانكليزية بقلم حايم موسى نحماد، ثم أعقبه آخر، هو الأثر الجديد الذي أنا بصدده، وعنوانه «صوت المعلّم» (THE VOICE OF THE MASTER) لمترجمه أنتوني رزق الله فرّس (أو فارس، لا أدري بالضبط). إن اسم المترجم ليس غريباً عليَّ، فقد سبق أن عرفته مترجِم كتابَيْ جبران «الأرواح المتمردة» و «دمعة وابتسامة» اللذين وصلاني في شباط سنة ١٩٤٩، وهما من منشورات المكتبة الفلسفية في نيويورك. والانطباع الذي حملته آنذاك عن المترجِم، أنه لم يحسن ترجمة «دمعة وابتسامة»، إذ لم يكن أميناً في نقل المعاني بدقّة، كما أسقط بعض الكلمات، وحذف قطعاً ومقالات بكاملها.

(*) نشر هذا البحث في مجلة «الأديب» البيروتية لشهر كانون الثاني ١٩٦١.

أما ترجمة «الأرواح المتمردة»، فكانت أمينة وجيدة بقدر ما يخص القصص الثلاث التي احتواها الكتاب المترجَم، فالقصة الرابعة «مضجع العروس» لم تُدرَج فيه. وهذا البتر قد أغاظني وآلمني في حينه، وما برح كذلك، إذ هو تشويه جزئي، لا يتفق وروح الأمانة في النقل والترجمة، ولست أدري حتى الآن، ما الذي حدا بالمعرِّب أن يهمل هذه القصّة التي كلّها ثورة وتمرّد على التقاليد البالية الجامدة، والتي إن لم نوافق أفكار صاحبها كلّها، فإننا نتّفق وإيّاه على معظمها[1]. وبعد شهور، وصلتني ترجمتا حايم موسى نحماد للكتابين ذاتهما من منشورات «هاينمن» بلندن، فألفيتهما أفضل بكثير.

لذلك، عندما وصلني الكتاب الجديد، كاد يتطرّق إلى قلبي بعض اليأس والخيبة والريبة، لكنّي دفعت كلّ تلك المخاوف دفعاً، وأقبلت على الكتاب، وغايتي الأولى هي تحسّس روح جبران الحقيقية منبثّة بين منعطفات الكتاب، والثانية إدراكه واستيعابه والانتشاء بسلافته الروحانية. ورغم أن النصّ العربي غير حاصل في حوزتي، أستطيع القول، وقد فرغت من الكتاب، إنّي قد تذوّقت ذات الخمرة السماوية التي أتذوّق عند مطالعتي آثار جبران، تلك الخمرة التي هي مزيج من رحيق الفن، وعصير المحبّة، وإكسير الحكمة، وكوثر عذب من الصوفية الناعمة المجنّحة. وتحسّست نفس جبران في كل كلمة

---

(١) هذه الجملة المبتدئة من (وهذا البتر..) والمنتهية بـ(على معظمها) لم ترد في أصل المقال بالمجلة.

قرأتها. لقد حاولت أن أعثر على اسم هذا الكتاب، وأجد له ذكراً في المصادر التي في حوزتي عن جبران، فلم أفلح، لكنّي عدت إلى كتاب جميل جبر، فألفيت في ص ٢٣ لميحة من نور، قد تكون فيها ضالتي، إذ يقول:

«فلازمها جبران متفائلاً ـ يقصد أمّه ـ وقرأ لها بعض خواطر التمعت في ذهنه، فدوّنها خميرة لكتاب نوى وضعه «ليصلح الكون» فأطرت سموّ تفكيره، ونصحت له بأن يدع للزمان مجالاً لتخثيره، فانتصح وطوى الشذرات على غير نشور».

ثم يعلّق الأستاذ جميل في الحاشية على هذا الكلام، بقوله:

«عن بربارة يونغ ويوسف الحويّك. لعلّها بعض أفكار بدائية أنضجها في «النبـي» ».

إني أميل إلى الاعتقاد بأنّ «صوت المعلم» هو نواة «النبـي» أو أنه «النبـي» قبل أن ينضج نضوجاً نهائياً في عقل وقلب جبران. وحجّتي في ذلك تستند على نقطتين: أولاهما أن الكتاب لم يظهر في العربية خلال مرحلة حياة جبران الأولى، عملاً بنصيحة والدته المشار إليها في المرجع الذي ذكره جميل جبر؛ وثانيهما التشابه العظيم الكائن بين أفكار «النبـي» وآراء «صوت المعلم»، كما أن هناك تناظراً كبيراً في النسق والأسلوب اللذين بهما جسّم جبران أفكاره وآراءه. ففي «صوت المعلّم» يتكلم المعلّم عن الحب والزواج والحكمة

والقانون والمساواة والطبيعة وغير ذلك، مخصصاً فصلاً لكلّ موضوع كما في «النبي». وفي «صوت المعلّم» نزوح عن الوطن لبنان إلى فينيسيا (البندقية)، والمكوث فيها فترة قصيرة ثم أوبة، كما في «النبي» هجرة إلى (أورفليس) وأوبة إلى جزيرة المنشأ بعد اثنتي عشرة سنة. بيد أن «صوت المعلم» يختلف بأنّ الواعظ ليس هو المعلّم ذاته كالمصطفى، بل هو تلميذ المعلّم الذي سُمّاه «المهتدى».

هذا هو رأيي الخاص، وهو لا يعدو الترجيح والحدس، مَيدَ أنّي أبغي من المترجم ـ خدمة للحقيقة والأدب ـ أن يذكر لنا شيئاً عن الأصل العربي لترجمته، وأين هي الآن، وكيف وقع بين يديه، وما هو السبب ـ في اعتقاده ـ في عدم ظهور هذا الأثر كما وضعه جبران أصلاً، وأن يجيب عن كل تساؤل في هذا الصدد. كما أني أطلب من المترجم ومحبّي جبران الإسهام في إخراج هذا الأثر النفيس بنصّه العربي. فمن الحيف والمؤسف حقاً ألا يخرج هذا الكتاب بلغته الأصلية، إذ أنا أستبعد أن يكون هذا الأثر قد ظهر مؤخراً بطبعة عربية في المهجر.

ثمّة من يشبّه كتاب جبران (السابق) بالنبي يوحنا المعمدان الذي سبق المسيح بالكرازة والتبشير والتعميد. أما الآن، وقد ظهر هذا الأثر الجديد، فهذا الوشاح في اعتقادي، يجب أن يُلقى على «صوت المعلم» فهو به أجدر وأحقّ. إذ أنّ التفاوت بين «النبي» و(السابق) أسلوباً وروحاً ومغزى وغاية، يبدو كبيراً جداً إلى حد يجعل البونَ

شاسعاً بين يسوع (المسيح) ويـوحنّا (يحيـى)، وهـذا في الواقـع غير صحيح.

يقع الكتاب في جزئين، أوّلهما يشتمل على فصلين: رحلة المعلّم إلى البندقية، ووفاة المعلم. في الفصل الأول، تقع عين التلميد (المهتدى) على المعلّم وهو يقطع الحديقة ذهاباً وإياباً، وقد لاحت علامات الكآبة على ملامحه، فيستفسره التلميذ عن دواعي كربته، فيطلب المعلم من تلميذه الجلوس على الصخرة عند بِركة السمك، وهناك يقصّ المعلم حكايته، يستهلّها بقوله:

«أنت تبغي مني أن أسرد لك المأساة التي تمثّلها الذاكرة على مسرح قلبي صباح مساء. أنت قلق لصمتي الطويل وسرّي المكتوم، وأنت مضطرب بسبب تنهّداتي ونحيبي. وأنت تقول لنفسك: إن لم يقدني المعلم إلى معبد أحزانه، فأنّى لي أن أنفذ إلى بيت محبته؟

اصغِ إلى حكايتي، ولا تشفق عليّ؛ إنما الشفقة من أجل الضعيف، وأنا ما برحت قوياً في كربتي».

ثمّ يمضي المعلّم في سرد الحكاية، ومجملها أنّه منذ صباه، كان طيف امرأة غريبة لا يبارحه، يقظاً ونائماً. ففي صمت الليل البهيم، كان يسمع صوتها السماوي، وعندما يطبق جفنيه، يشعر لمس أناملها على شفتيه. وكان هو نفسه يعجب لأمره، فيقول: «تراني هل

أنا انكمشت بنفسي عن المجتمع وبهرجة المدينة لأكون فريداً مع من أهوى؟ هل أنا حجبتُ سمعي وبصري دون مظاهر الحياة وأشكالها، مفضلاً أن ألمحها وأسمع صوتها العلوي؟ هل أنا ممسوس، مكتفٍ بالوحدة، يصوغ من أطياف عزلته رفيقاً وقريناً لروحه؟».

حقاً، لقد كانت تلك المرأة الخيالية قريناً له، كثيراً ما تتردد عليه وهو في ضيق ومحنة، فتبدد أحزانه واضطرابه.

وكأنّه لمع في خاطر المعلّم أن تلميذه سيسأله مستغرباً، كيف يستطيع الاكتفاء بمثل هذه الحياة، وأنّى لرجل مثله، في ربيع الحياة، أن يجد الغبطة في الأطياف والأحلام! لكنه يجيب عن هذا التساؤل الخفي: «بيد أنّي أقول لك إن السنين التي أنفقتُ على هذا المنوال، لهي بمثابة حجر الزاوية لكل ما استوعبته من معرفتي للحياة والجمال والسعادة والسلام».

ويستمر المعلم، فيقول: «منذ عشرين عاماً، أرسلني محافظ جبل لبنان إلى البندقية في مهمّة تعليمية مع رسالة توصية إلى أمين المدينة الذي كان قد لقيه في الأستانة. وقبل أن يقلع المركب إلى إيطاليا، وعيتُ صوتاً في داخلي يهمس: (عد! لا تبرح! عد إلى الساحل قبل أن تبحر السفينة!) وفي المساء ألفيتني في المركب وحيداً، وعبثاً حاولت العثور على قرينتي وامرأة أحلامي ــ المرأة التي هام بها فؤادي. ولما أسدل الليل سجوفه، بات كلّ من في المركب

نياماً سواي، وقد تنازعني القلق والاضطراب. وعلى حين غرّة، بدت لي قرينة حياتي، فقالت: «لماذا سلوتني أيّها الحبيب؟ أين كنت؟ كن ملازمي، ولا تبرحني ثانية!» وعندما أويت إلى مضجعي في المقصورة، لاحت لي في الحلم شجرة تفّاح كالصليب، وقد تدلّت منها رفيقة عمري كالمصلوبة، وقطرات من دمها نزّت من يديها وقدميها، فوقعت على أزهار الشجرة المنثورة...».

وبعد إبحارٍ دام خمسة عشر يوماً، رست السفينة في ميناء فينيسيا، وهبط منها إلى الجندول الذي انساب به ما بين القنوات. ولما كان الوقت ليلاً، بدت له فينيسيا ـ وقد انعكست أنوارها وأضواء نوافذها على صفحات القنوات، كصورة فاتنة من الصور التي تفد على رؤى الشاعر. وإذ هو عند مفترق قناتين، بلغ سمعه قرع أجراس جنائزية. ولما قاده ملّاح الجندول إلى حيث جوسق أمين المدينة، وفتح له الباب، تواردت إليه أصوات ولولة ونواح. وهناك سلّم خادماً مسناً الخطاب الذي معه من محافظ لبنان، فأنفذه إلى الداخل. وغبَّ هنيهة، علم من خادم صغير، أنّ ابنة صاحب القصر قد قضت نحبها في ذلك اليوم.

لكنّ الوالد المفجوع المكتئب، أحسن لقاء المعلّم وضيافته، ووعده أن يعمل بكلّ ما في طاقته لإنجاز مهمّته. وبعد أن غادر المعزّون، همّ المعلّم بالإنصراف، لكنّ الوالد المحزون استوقفه والتمسه أن يمكث ضيفاً إن هو استطاع احتمال الأسى معه. فلامست

كلماته شغافَ قلب المعلّم، واستجاب لرغبته، ولقي منه أحسن ما يلقى الضيف من اعتناء واهتمام.

في الليلة الأولى التي قضاها المعلّم في القصر المنيف، الذي جللته غمامة الأسى، ألفى نفسه في حال بين سكرة النوم وصحوة اليقظة، وأحسّ طيفاً أثيرياً يحوم فوقه، ويناديه بدون دليل حسّي. فمشى لا إرادياً، كأنه في حلم، نحو القاعة حيث وجد في الوسط نعشاً تحيطه شموع مرتعشة اللهبات الصفراء، وأكاليل زهور بيضاء. هناك ركع وتطلّع في المتوفّى، فوجد أنّ الردى قد جلّل وجهاً حبيباً إلى قلبه ــ وجه محبوبته، رفيقة العمر التي عبدها ــ لاحت له في جمود الموت، مسربلة بالبياض، محاطة بزهور بيضاء، يحرسها صمت الأجيال.

وهنا يغرق المعلّم في مناجاة روحيّة، ربّانية. وممّا يقول فيها: «يا رفاق وحدتي واغترابي: لقد شاء الرب أن أكرع كأس الحياة العلقمية، فلتكن مشيئته. لسنا سوى ذرّات ضعيفة في فضاء الكون، وليس في مقدورنا إلا الاستسلام لمشيئة العناية».

لقد أسهبتُ قليلاً في ذكر هذه الصور الجبرانية البديعة، لروعتها وأهمّيتها. فجدير بالقارىء ــ عند هذا الحد ــ أن يدرك حقيقة هذه المرأة التي يدعوها جبران «قرينة الحياة» و«امرأة الأحلام». فهل أدركتَ، أيها القارىء، من هي؟ إخالك في غنى عن أن أجيب عنك: هي الحياة ــ أجل الحياة التي أحبها جبران حباً جمّاً، فلم يكتفِ

بالمكوث على (برّها) والوقوف عند (ساحلها)، بل شاء أن يقتحم (عبابها) ويتغلغل في (محيطاتها)، فهام بالحق والعدالة شغفاً بالحياة الكريمة(٢).

ثم يخاطب المعلّم تلميذه: «إني إذ أحكي هذه الحكايـة، لا أشكو، لأن الشاكي يرتاب في الحياة، وأنا قويّ الإيمان. إنّي أؤمن بقيمة المرارة الممتزجة بكلّ نغبة أرشفها من كأس الحياة. أنا مؤمن بجمال الحزن المختـرق مهجتي. أنا أؤمن بـرحمة هـذه الأصابـع الفولاذية التي تهصر روحي فيما بعد».

ويمضي المعلم في القول: «وبعد انصرام ثلاثة أسابيع، برحت البندقية، وكأني قد أنفقت دهوراً مديدة. أما طيفها، فظلّ. ومع أني ألفيتها ثانية في الموت فحسب، غير أنّ ظلّها بقي حياً فيّ. في ظلّه عملت وتعلّمت. أما أعمالي، فأنت ـ أيها التلميذ ـ تعلمها جيداً. فقد سعيتُ أن آتي إلى شعبي وحاكميه بما حصلتُ عليه من الحكمة والمعرفة، وجلبت إلى (الحارس)، محافظ لبنان، صراخ المظلومين الذين كانوا تحت وطأة وعسف وتجنّي رجال الدولة والكنيسة.

«لقد أسديتـه النصح بـأن يسلك نهج أسـلافه، ويسوس رعيّته ـ كما فعلوا ـ بالرأفة والمحبّة والحصافة، وقلت له: «إن الشعب مجد مملكتنا، ومصدر ثروتها.

---

(٢) الجملة الأخيرة من (فهام) حتى النهاية ليست في أصل البحث المنشور في المجلة.

كما قلتُ: على الحاكم أن يقصي عن دولتـه: الغيظ والطمع والبهتان والشراسة.

«وبسبب من تعاليمي هذه وغيرها، عوقبتُ وأقصيتُ وحُـرمتُ من الكنيسـة. وحلّت ليلة، عنـدمـا داهم الاضطراب قلب (الحارس)، فلم يُغمض له فيها جفن. فوقف عند النافذة، يتأمّل الأفـلاك والكون والخـالق، متسائلاً: من هو وما علّة وجوده هناك! وتذكّر إقصائي، وندم على ما بدر منه نحوي. وللفور طلبني وسألني الغفران، وأنعم علـيّ ببزّة رسمية، وأعلن للملأ بأنّي مستشاره، ووضع مفتاحاً ذهبياً في يدي.

«لست آسفاً على الأعوام التي أمضيتها في المنفى. فإن من ينشد الحقيقة، ويعلنها للبشر، عليه أن يقاسي. علّمتني أشجاني أن أتفهّم أحزان إخوتي في الإنسانية. فلا الاضطهاد أطفأ الخيال الذي فـيّ ولا المنفى».

وبعد أن ختم المعلّم قصّته، شعر بالجهد، فصرف تلميذه، وقصد عزلته ليريح بدنه وروحه من متاعب الذكريات القديمة.

إلى هذا القدر، ينتهي الفصـل الأوّل. أما الثـاني، فيستهلّ بهذا الكلام:

«انصرم أسبوعان، ومرض المعلم. فتوافد نحـو المنسك جمع من المعجبين، يستفسرون عن صحتـه.

وعندما بلغوا باب الحديقة، رأوا قسّيساً وراهبة وطبيباً والمهتدى خارجين من تأمورة المعلّم. وأعلن التلميذ الحبيب وفاة المعلّم، فشرع الجمع الغفير في النواح والنـدب. أما المهتـدى، فلم يسفـح دمعـاً، ولم يـرتمْ بكلمة. ومكث المهتدى فترة يتأمّل في نفسه، ثم وقف على الصخرة قرب بِركة السمك، وقال:

«إخواني وبني وطني: ها قد بلغكم نعي المعلّم. لقد سلّم «نبـي» لبنان نفسه إلى النوم الأبدي، وروحه المباركة ترفرف فوقنا في سماوات الروح، عالياً وقصياً عن كل كآبة وأسى. لقد نبذت روحه عبْودية الجسد، وحمّى هذه الحياة وأوزارها.

«لقد كانت حياته على هذه الأرض سلسلة طويلة من الأعمال العظيمة. كانت حياة فكر مستمرّة، إذ أنّ المعلّم لم يعرف الراحة في غير العمـل. لقد أحبّ العمل، فعرّفه بأنه الحبّ المجسّم».

ويمضي المهتدى في تأبين معلّمه تأبيناً بليغاً مؤثّراً رصيناً، ويناشد الحشد ألاّ يبكي المعلّم، وألاّ يحزن لفقده إن كان حقـاً يحبّه، فيقول:

«لا (تعطوا) الفذّ، بل (خذوا) منه. فهكذا فقط ستقدّرونه. لا تنوحوا من أجله، بل ابتهجوا وانهلوا من

أعماق حكمته، فبهذا وحده ستسدونه الثناء الذي هو أهل له».

وغِبَّ أن استمع الحشد كلمات التلميذ، آبوا إلى بيوتهم، والبسمات على شفاههم، وأغاني الشكران في أفئدتهم.

وأمسى المهتدى وحيداً، لكن العزلة ما ملكت جنانه، لأن (صوت المعلم) ظلّ يتجاوب في أذنيه، حاثّاً إيّاه على المضيّ في عمله، ويذر كلمات «النبي» في قلوب وأذهان الذين يصغون إليه بملء اختيارهم. وبعد فترة أربعين يوماً من التأمّل، غادر المهتدى عزلته، وطفق يتجوّل بين المزارع والقرى والمدن في فينيقيا القديمة.

وذات يوم، إذ كان يجتاز سوق مدينة بيروت، تبعه جمع غفير، فتوقّف في ممشى عام، حيث التفّ الزحام حوله، وخاطبهم بصوت المعلّم قائلاً:

«شجرة قلبي مثقلة بالثمر. تعالوا أيها الجياع واقطفوا. كلوا واكتفوا. تعالوا واجنوا من هبات قلبي، وخفّفوا حِملي. نفسي مُرهَقة بعبء الذهب والفضّة. هلمّوا أيها الباحثون عن الكنوز، واملأوا أكياسكم، وأريحوني من عبئي.

«فؤادي يفيض بنبيذ العصور؛ هلموا أيها العطاش، واطفئوا سنسنكم.

«بالأمس لمحت ثريّاً واقفاً عند باب المعبد، مادّاً يديه المملوءتين بالأحجار الكريمة، نحو عابري السبيل، داعياً إيّاهم قائلاً: «إشفقوا عليّ! خذوا منّي هذه الجواهر، فقد جعلتْ نفسي مشمئزّة وقلبي غليظاً. إرأفوا بي، خذوها. واجعلوني خاوياً من جديد!» لكن فرداً من عابري السبيل لم يستجب لتوسّلاته. وتطلّعت إلى الرجل، وقلت لذاتي: كان من الأفضل له حتماً، لو أنّه جاب شوارع بيروت متسولاً، مادّاً يداً مرتعشة ابتغاء الصدقة، وآب إلى البيت مع هبوط المساء، خاوي الوفاض.

«وشاهدتُ شيخاً غنياً معطاء من دمشق الشام، يقيم خيامه في مجاهل الصحراء العربية وعند سفوح الجبال. في المساء كان يوفد عبيده لإيقاف المسافرين وجلبهم إلى خيامه حيث يُكسَون ويُضافون. لكنّ المسالك الوعرة كانت مقفرة، وما عاد الخدم بضيف.

«وفي لبنان، رأيت ابنة محافظ الجبل، تستيقظ من رقادها، مسربلة بثوب نفيس. شعرها مضمّخ بالصُوار، وبدنها ممسوح بالطيب، تمشي في حديقة قصر والدها، تنشد محبّاً. وكانت قطرات الندى على السندس المخملي ترطّب حواشي ردائها. ولكن واحسرتاه! بين كل رعيّة والدها، لم يُشعَف بها فرد.

«وددت لـو أني شجرة لا تـزهر ولا تثمـر. فـألم الخصب أقسى من تبريح العقم، ووجع الغنيّ السخيّ أشدّ وقعاً من تعاسة المعدَم.

«وددتني بئراً خاوية، لعل الناس يرمون حجراً في أعماقي. إذ الأجدى أن أكون بئراً خالية، ولا نبع ماء نقيّ، لا تلمسه شفاه الظِماء.

«ليتني قصبة مرضوضة، تسحقها أقدام الإنسان، فذلك أنفع من كوني قيثارة في بيت، أنامل صاحبه عليها البثور، وأهله صُمّ.

«اصغوا إلـيَّ، أنتم أبناء وبنات وطني. تمعّنوا في هـذه الكلمات المنـطلقـة نحـوكم من خـلال صـوت «النبـي». افسحوا لها مجالاً في أفئدتكم، ودعوا بذور الحكمة تزهر في جنائن أرواحكم. فهـذه هي عطيّـة الرب الثمينة».

وذاعت شهرة المهتدى في جميع أطراف الأرض، وأمّه الملأ من مختلف الأصقاع لتبجيله والاستماع إلى كليم المعلّم. فتهافت عليه الطبيعيّون ورجال القانون والشعراء والفلاسفة بأسئلتهم حيثما صادفوه: في الشوارع والكنيسة، في الجامع والكنيس، أو في أي موضع آخر يحتشد فيه الخَلق. فاغتنت عقولهم بكلماته الأخّاذة التي تناقلتها الشفاه، وتكلم لهم عن الحياة وحقيقة الحياة:

«الإنسان كَزَبد العيلَم، طافٍ على صفحة الماء.
عندما تهبّ الرياح، يتبدّد وكأنّه ما كان. هكذا هي
حيواتنا. تزول بهبوب المنيّة. حقيقة الحياة هي الحياة
ذاتها. أوّلها ليس في المهد، وآخرها ليس في اللحد.
فليست الأعوام التي تنقضي سوى لحظة في الحياة
الأبدية، وما عالم المادّة وما فيه غير حلم، إذا قورن
باليقظة التي ندعوها رهبة الموت...».

وقبل أن يصرف الحشدَ، خاطبهم قائلاً: «هناك صنفان من البشر في هذا العالم: أناس الأمس، وأناس الغد. فإلى أيّ منهما أنتم تنتمون يا إخوتي؟ تعالوا.. دعوني أتفرّس فيكم لأعرف إذا كنتم من أولئك الذين يفدون إلى عالم النور، أم من أولئك الذين ينطلقون نحو أرض الديجور. اقبلوا وأنبئوني من وما أنتم».

وهنا يبلغ المهتدي ذروة الإبداع، إذ هو يخاطب الجمهور فئة فئة، متغلغلاً إلى نفوس السياسيين والتجّار والمواطنين وزعماء الدين والصحفيين والمعلمين والحكّام والكتّاب والمفكّرين والشعراء، يعرّي بوصفه المزيّفين من كل طبقة، ويعرّف الحقيقيين من كلّ صنف. ويؤسفني أن ضيق المجال لا يسمح بذكر كلّ ما نطق به المهتدى في هذا الصدد، فأكتفي باختيار اليسير المقنع:

«هل أنت حاكم، تنظر من علٍ نحو أولئك الذين

تحكم، ولا يعنيك سوى نهب جيوبهم، واستغلالهم لمنفعتك الخاصة؟

«أأنت خادم مخلص يحبّ الشعبَ، ساهر على شؤونهم دوماً، وغيور على فلاحهم؟ إن كنت كذلك، فأنت البركة الهاجعة في مخزن الغلال.

«أم أنت بعل، يعتبر أخطاءه مشروعة، وتلك التي تقترفها زوجه محرّمة؟ إن كنت كذلك، فأنت كوحوش مندرسة، سكنت الكهوف، وغطّت عريها بالتخفّي.

«أم أنت رفيق أمين، قرينته دوماً بجانبه، تقاسمه كلّ فكرة وفرحة وظفر؟ إن كنت كذلك، فأنت كمن يسير في الفجر في طليعة الشعب، نحو سمت العدالة والعقل والحكمة السامق.

«هل أنت شاعر، ملؤه جعجعة وأصوات فارغة؟ إن كنت كذلك، فإنّك كواحد من أولئك المهرّجين الذين يضحكوننا بينما هم يبكون، ويبكوننا إذ هم يضحكون.

«أم أنّك من الأرواح الموهوبة، وضع الآله في يديه قيثارة لتلطّف الروحَ بموسيقى سماوية، ويجتلب رفاقه في الإنسانية إلى حيث الحياة وجمال الحياة؟ إن كنت

كذلك، فأنت مشعل، تنير لنا السبيل، وشوق عذب في أفئدتنا، وتجلّي السامي في أحلامنا.

«فهكذا الأنام، ينقسمون إلى فريقين: الأول من عجزة قُطْن[3]، يدعمون ذواتهم بعيدانٍ معوجّة، وفيما هم يسيرون على دروب الحياة، يلهثون كأنهم يرتقون شطرَ الشعفة[4]، بينما هم في الحقيقة ينحدرون صوبَ الهاوية.

«والفريق الثاني مؤلّف من شباب، يعدو كأنّه مجنّح الأقدام، ويشدو كأنّ حناجره فضّية الأوتار، يتسلقون نحو ذؤابة الطود، كأنّ طاقة سحريّة، لا تُقاوَم، تجذبهم.

«فإلى أيّ من هذين الموكبين تنتمون يا إخوتي؟ إسألوا نفوسكم هذا السؤال عندما تنفردون بأنفسكم في سكون المساء».

ثمّ عاد المهتدى إلى صومعته، ولذب في غزلته يقرأ ويتمعّن في كلمات المعلّم الحكيمة. لقد استوعب الكثير، لكنّه وجد أشياء كثيرة لم يتعلّمها ولم يسمعها قط من فم المعلم. لقد آلى على نفسه ألا

(٣) جمع أقطن وهو الأحدب.

(٤) قمة الجبل.

يبرح الصومعة حتى يكون قد أدرك وأتقن كلّ ما خلّفه المعلّم كي يتسنّى له تقديمه لمواطنيه.

وعبثاً حاول المعجَبون الوصول إليه، وقد تملّكهم القلق عليه. حتى أنّ محافظ جبل لبنان، عندما دعاه ملتمساً أن يخاطب رجالَ دولته، لم يستجب، وقال: «سأعود إليكم قريباً، مع رسالة خاصّة لكل الشعب». وطلب محافظ الجبل من المواطنين أن يحسنوا استقبال المهتدى يوم خروجه إليهم في كلّ موضع ومكان، وأنّ عليهم أن يصغوا إليه بوقار، فصوته كان صوت «النبـي».

لقد سُمعت كلمات المهتدى في سائر أرجاء لبنان، وطبعت فيما بعد في سِفر على شكل رسائل، ووزِّعت في أنحاء فينيقيا وبلاد العربِ الأخرى. كانت بعض الرسائل نفس كلمات المعلّم، والبعض الآخر كان منتقًى، من قبل المعلّم والتلميذ، من أسفـار الحكمة والمعرفة القديمة.

إلى هذا الحدّ، ينتهي الجزء الأوّل من الكتاب، وقد لاحظت منه، كما لاحظ القارىء، أنّ جبران قد أطلق في أكثر من موضع كلمة «النبـي» على المعلّم ـ معلّم المهتدى. وأنا أدلّل بهذا على دعم اعتقادي بأنّ (صوت المعلّم) هو إحدى الولادات العربية لكتاب «النبـي» والأرجح أنّه آخرها.

إلاّ أنّ الفارق بين كتاب (المصطفى) وسفر (المهتدى) هو أنّ المصطفى يخاطب الجمع إجابة عن أسئلة الناس من كل طبقة وفئة،

بينما المهتدى يكرز في الحشد بصورة عامّة بأقوال المعلّم وحكمته، معالجاً كلّ ما يهمّ الناس معرفته من شؤون حياتهم وآخرتهم، مضيفاً إليهما ما استزاد من حكمة وعرفان خلال انقطاعه إلى التأمّل والتفكير في عزلته.

والملاحَظ أيضاً أن المؤلّف قد عكس الأمر في كتابه «النبـي» فأطلق كلمة (معلّم) على النبـي، وهي لعمري تسمية جليلة في فحواها، سامية في تواضعها. إذ هل النبـي إلّا معلّم ومرشِد، يبعثه الباريء برسالة إلى قومه خاصّة، وإلى البشرية عامّة؟(٥).

ومع ما في الكتابين من فوارق وتباين، فأنا أعتبرهما من معين واحد، وكتوأمين من رحم واحد وصُلب واحد. عقل المصطفى أوسع، وروحه أعمق، ونفسه أخصب، أما معلّم المهتدى، فخياله أنشط وأزهى. لكنّ قلب كلّ منهما صَهود(٦)، وفي الوسع نظير.

أما الجزء الثاني، وهو الأهم، فيكوّن ثلثي الكتاب حجماً، ويشتمل على عشرين فصلاً، كثيرة الشبه بفصول «النبـي»، كلّ فصل يعالج ناحية أو أكثر من حياة الإنسان وعواطفه وأفكاره وفنونه: الحياة، ضحايا شريعة الإنسان، الزواج، العقل والمعرفة، الموسيقى، الحكمة، الحب والمساواة، الطبيعة والإنسان، الأمل والمعاد.

---

(٥) هذه الفقرة بكاملها غير واردة في المجلة.

(٦) جسيم.

فمّما يخاطب به ضحايا شريعة الإنسان: المسجونين، الجنود المدفوعين إلى ساحات الوغى بدوافع طمع الحكّام، والنساء الجميلات اللواتي يسقطن فريسة لغلمة الأثرياء، الشعراء المنسيين من بني جلدتهم، قوله:

«فاطمئنوا أيها الضعفاء، إذ ثمّة قوة جسيمة خلف هذا العالم الماديّ، قوّة كلّها عدل ورحمة وإشفاق ومحبّة.

«أنتم كشجرة عارية، أحنتها ثلوج الشتاء، سيحلّ الربيع، ويكسوكم بحلّته الخضراء، وستزيح الحقيقة نقابَ العبرات الذي يحجب ضحكاتكم. إنّي آخذكم نحوي، يا إخوتي المضطهَدين، إني أحبكم، وأزدري ظالميكم».

ومما يقول في الزواج: «هو اتحاد شيئين علويين ليلد الثالث على الأرض. إنّه اندماج روحين بحبّ عارم، لإزالة التباعد.. إنّه الحلقة الذهبية في سلسلة، أوّلها نظرة وآخرها الأبديّة. هو الغيث النقي من سماء طاهرة لتخصب وتبارك حقول الطبيعة القدسية.

«فكما أنّ النظرة الأولى من عين الحبيب كبذرة تُذَرّ في القلب البشري، والقبلة الأولى من شفتيها كزهرة على شجرة الحياة، فما اتحاد الحبيبين في الزيجة إلا كالثمرة الأولى لأوّل زهرة من تلك البذرة».

وقوله في أبدية الإنسان: «مثل عمود من نور، لمحتُ الإنسانَ منتصباً وسْطَ أطلال بابل ونينوى والأهرام وپومپي، وفي وقفته أنشد نشيد الخلود:

«لتأخذ الأرض ما لها؛

«فأنا، الإنسان، ليست لي نهاية».

وعن العقل والمعرفة، قال: «عندما ينطق العقل، أصيخوا إليه، تكونوا في أمان. انتفعوا من منطقه، تصبحوا في درع. لأنّ الله لم يمنحكم أفضل من العقل دليلاً، ولا أمنع من العقل حصناً.

«ولكن اذكروا أنه ولو كان الحِجى بجانبكم، فهو غير مجدٍ من دون عون المعرفة. فمن غير شقيقته المعرفة، يغدو الحجى كإملاق بدون مأوى، والمعرفة من غير الحجى، كبيت بلا حارس. وحتى الخير والمحبّة والعدالة ضئيلة الجدوى، إذا لم يكن ثمّة عقل أيضاً».

ومن شذراته، قوله:

«لقد وهبك الرحمن روحاً مجنّحة، كي تحلّق عليها في فضاء الحب والحرّية. أليس من المؤسف، إذاً، أن تبتر جناحيك بذات يديك، وتشقي روحك بأن تدبّ كحشرة على الأرض؟».

«يا نفسي: الحياة كضاعن في ليل، كلّما زادت سرعته، كان الفجر أسبق».

وقد راقني منه، بصورة خاصّة، فصل عنوانه «المدينتان» فترجمته كاملاً:

«رفعتني الحياة على جناحيها، وأقلّتني نحو ذروة جبل الشباب، ثم أومأتْ وأشارت إلى خلفها. تطلعتُ إلى الوراء فلمحتُ مدينة غريبة، تصاعد منها دخان قاتم عديد الألوان، ينتشر بطيئاً كأشباح. وكادت غمامة رقيقة تحجب المدينة عن ناظري.

«وبعد هنيهة صمت، هتفت: ما هذا الذي أبصر أيّتها الحياة؟ فأجابت الحياة: هذي (مدينة الماضي).. انظر إليها وتأمّل. ونظرت إلى المشهد المدهش، ولاحظت أشياء ومشاهد عدّة: قاعات مشيّدة للعمل، قائمة كالمردة تحت أجنحة الوسن؛ معابد من الكلام ترفرف حولها أرواح تصرخ يائسة. وتنشد أغاني الرجاء في آن معاً. رأيت كنائس شيّدها الإيمان، وهدّها الشك. تطلّعت نحو منائر الفكر ترفع مشاهديها مثل أذرع السائلين الممدودة، وشاهدتُ شوارعَ الرغبة ممتدّة كالأنهار عبر الوديان، ومخازن الأسرار يخفرها حرّاس

الكتمان، وتسلبها لصوص الأفشاء؛ أبراج القوّة، أقامها البأس، ودكّها الخوف؛ مزارات الأحلام، زخرفها الرقاد، وحطّمتها اليقظة. أكواخاً مهملة، يسكنها الوهَن؛ جوامع الانفراد ونكران الذات؛ معاهد العرفان مُضاءة بالذكاء، ومعتمة بالجهل؛ وحانات الحبّ حيث العشّاق سكارى، وحيث الخواء يسخر منهم، ومسارح على ألواحها مَثّلت الحيــاة مسرحيّتهــا، وحيث الحتف يختتــم مــآسي الحياة.

«هكذا هي مدينة الماضي، قصيّة في الظاهر، دانية في الواقع، وتبـدو ـ ولو بجهـد ـ من خلال الـدخان القاتم.

«ثمّ استدارت نحوي الحياة، وقالت: اتبعني. لقد لذمنا هنا طويلاً. فأجبتها: إلى أين أيتها الحياة؟ أجابت الحياة: إنّنا ذاهبان إلى مدينة المستقبل. فقلت: ألا رفقاً بـي أيتها الحياة؛ فقد كللتُ، وبليتْ قدماي، وفارقتني قوّتي.

«لكنّ الحياة ردّت: سِرْ قُدُماً يا صديقي: فالوقوف جُبْنٌ. إنه لمن الخطل التطلّع أبداً إلى مدينة الماضي. ها انظر! فمدينة المستقبل تومىء...».

هذا ما شئت، وما هو بمقدوري تقديمه إلى القارىء العربي ضمن هذا المجال عن هذا الأثر الجبراني الجديد، وهو بالنسبة إليّ بعض واجب في عنقي، كالواجب المفروض على التلميذ تجاه معلّمه.

□ □ □

خطاب إلى ميخائيل نعيمة (١)(*)

عزيزي الأستاذ ميخائيل نعيمة،

تحية عامرة بالود والاحترام، دافقة بالحب والإعجاب. الأمل أن تلقاك هذه السطور، وأنت بكامل الصحة والخير.

قد يجوز أنك سلوتني لانقطاع رسائلي عنك. أما أنا، فما نسيتك، ولن أنساك. إذ ــ كما أتذكّر ــ كانت آخر رسائلي إليك، تلك المحررة في البصرة في عام ١٩٥٥. وها قد انصرمت أربعة أعوام، أعود بعدها إلى مخاطبتك على هذا القرطاس الأبكم، ولكن من بغداد، غِبّ سنتين من مغادرتي بلدة الجاحظ والأصمعي وإخوان الصفاء. كما يُحتَمل أن هذه الفترة قد غيّرت بعضاً من ملامحك وتجاعيدك، وقسطاً من قوّتك البدنيّة، كما غيّرت منّي، بيد أنّ إعجابي بك ومحبّتي نحوك لم يتغيّرا.

لقد أنفقتُ الأعوام الأربعة الأخيرة من عمري في دوّامات من

(*) كتب ببغداد في ١٩٥٩/١٢/٣١.

المشاغل والانهماك والمشاكل المعاشية إلى درجة أرغمتني على إهمال الكثير من الواجبات نحو نفسي وأصدقائي وأحبّتي من صفوة الرجال. أما أنت، ولا أحسدك، فقصيّ عن هذه الدوّامات العنيفة والمشاكل الصاخبة، مقيم في بقعة هادئة، تستطيع التفكير كما يحلو لك، والكتابة كما يُملي عليك ذهنك، وتوحي إليك خواطرك. انقضت هذه السنون القلائل، وكأنها ليست سوى أربعة شهور.

في رسالتي الأخيرة، المذكورة آنفاً، كنت قد التمستك أن تهديني إلى معرفة الغاية من وجود الإنسان، وتوقّعت الحصول على جوابك الشافي بهيئة زبدة لا تعدو بضعة أسطر، لكنّك ـ رعاك الله ـ اخترت لي سبيلاً شاقاً طويلاً، إذ أشرت عليّ بمطالعة كتابك «مرداد»؛ باعتباره الحاوي على الجواب الشافي بين ثناياه. لكنّي ـ يا أستاذي العزيز ـ طالعت الكتاب بتمعن لا مزيد عليه، مرة ومرتين، فلم يروِ غُلّتي، ولم ينوّلني بغيتي. غير أني لم أقنطْ، فحاولتُ هنا وهناك، واتصلت ببعض العلماءالروحانيين؛ كما اجتهدت اجتهادي الخاص في تأمّلات وخلوات، بقدر ما سمح الوقت ويسّر المحيط، فخرجت من كلّ ذلك بنتائج طيّبة، رضيت عنها بعض الرضى، وضمّنتها كتابي «تلميذ الناسك» الذي فرغت منه قبل شهرين فقط، فشعرت بعد إنجازه بقسط من راحة، كمن أزاح عن كاهله عبئاً ثقيلاً مُضنياً. لكنّ الكتاب لا قِبَل لي بطبعه في الوقت الحاضر، فلبث ينتظر موعده كسابقيه «تراتيل وبخور» و«خواطر وآراء»، إذ أنّ «اتحاد الأدباء العراقيين» عاجز حالياً عن القيام بمهمّة نشر إنتاج الأدباء. ومردّ هذا

العجز ليس إلى نضوب في ماليّة «الاتحاد» أو ميزانيّته، فالعلّة أبعد غوراً من هذا ــ مع مرير الأسف. إنها علّة الشرق والشرقيين ــ علّة سوء التنظيم، والقول بدون الفعل، ومرضُ الانشقاق، والتحزّب والانقسام على بعضنا.

لقد وددت الكتابة إليك قبل شهرين ونيّف، غِبَّ اطلاعي على تقرير أحد الأدباء أو الصحفيين اللبنانيين، نشرته جريدة «الزمان» البغدادية ــ ولا يحضرني اسمه في هذه اللحظة. كان التقرير عن شخصك وبلوغك سن السبعين، فأحببتُ في حينه أن أكتب إليك مهنئاً ببلوغك السبعين، لكنّ المشاغل والمشاكل والمهام أعاقتني حتى اليوم. وقبل ثلاثة أسابيع فقط، استطعت اقتناء الجزء الأول من كتاب «سبعون». أما أخي الصديق خارث طه الراوي، فقد سبق أن حرّر إليك مهنئاً بعامك السبعين، وأطلعني على ردّك عليه منذ ما ينوف على الشهر، كما سبقني ــ بأيام قلائل ــ في اقتناء كتابك الأخير. وعندما علم نيّتي على الكتابة إليك، أوصاني إبلاغك سلامه العاطر ــ وها أنا الآن فاعل ــ إذ كان البارحة في زيارتي، فأتينا على ذكرك بالخير. لم يتسنّ لي، بعد، مطالعة الجزء الأول من كتابك بأكمله، إذ ما عتمتُ في أوله. وأنا بانتظار الجزئين اللاحقين. لقد سرّني ترشيحك لنوال جائزة (نوبل) الأدبية، وستكون بهجتي عميقة لو تحقّق ذلك، لأنّك أهل لها.

بمناسبة حلول عيد ميلاد يسوع البار، ورأس السنة الجديدة، أبعث إليك بأخلص تمنّياتي وأزكى تهانيّ، سائلاً المولى أن يمدّ في

عمرك، ويصون قوّتك، لتتحف العالم والأدب العربي بمزيد من روائع الفكر والفن.

ختاماً، أرجو من البارىء القدير أن ينولني أمنيتي الغالية، ألا وهي أن يجمعني وإيّاك في (بسكنتنا) لبنان العزيز في أقرب حين. واسلم للمحب المخلص.

يعقوب أفرام منصور

□ □ □

خطاب إلى ميخائيل نعيمة (٢)(*)

عزيزي الأستاذ ميخائيل نعيمة،

عاطر تحيتي، وصادق مودّتي أهديك، وأتمنى أن تلقاك هذه السطور، وأنت بسربال الخير والعافية.

رسالتك المؤرخة في التاسع والعشرين من نيسـان ١٩٦٠، بلغتني فأشكرك عليها. ورغبت في التحرير إليك قبل الآن، لكنني ارتأيت إتمام قراءة الأجزاء الثلاثة من كتابك الأخير «سبعون» حتى يكون مادّة لخطابي. لقد أنجزت مطالعة المرحلة الأخيرة قبل أسابيع قليلة، وها أنا الآن أزوّدك بآرائي فيه، وانطباعاتي عنه، كما وعدتُ حسبما أتذكّر ــ في رسالتي السالفة.

كتابك «سبعون» من حيث المادة: فيه دسم وفير. ومن حيث الأدب وفنّ الأدب: حافل ونضير. ومن ناحية المُثُل والإنسانية: طيّب ونبيل. وإني ــ والحق يُقال ــ قد ابتهجت بمطالعته، واستفدت منه روحياً وفكرياً. وقد راقتني منه ــ بصورة خاصة ــ طائفة من الفصول

(*) كتب ببغداد وأرسل في ربيع عام ١٩٦٠.

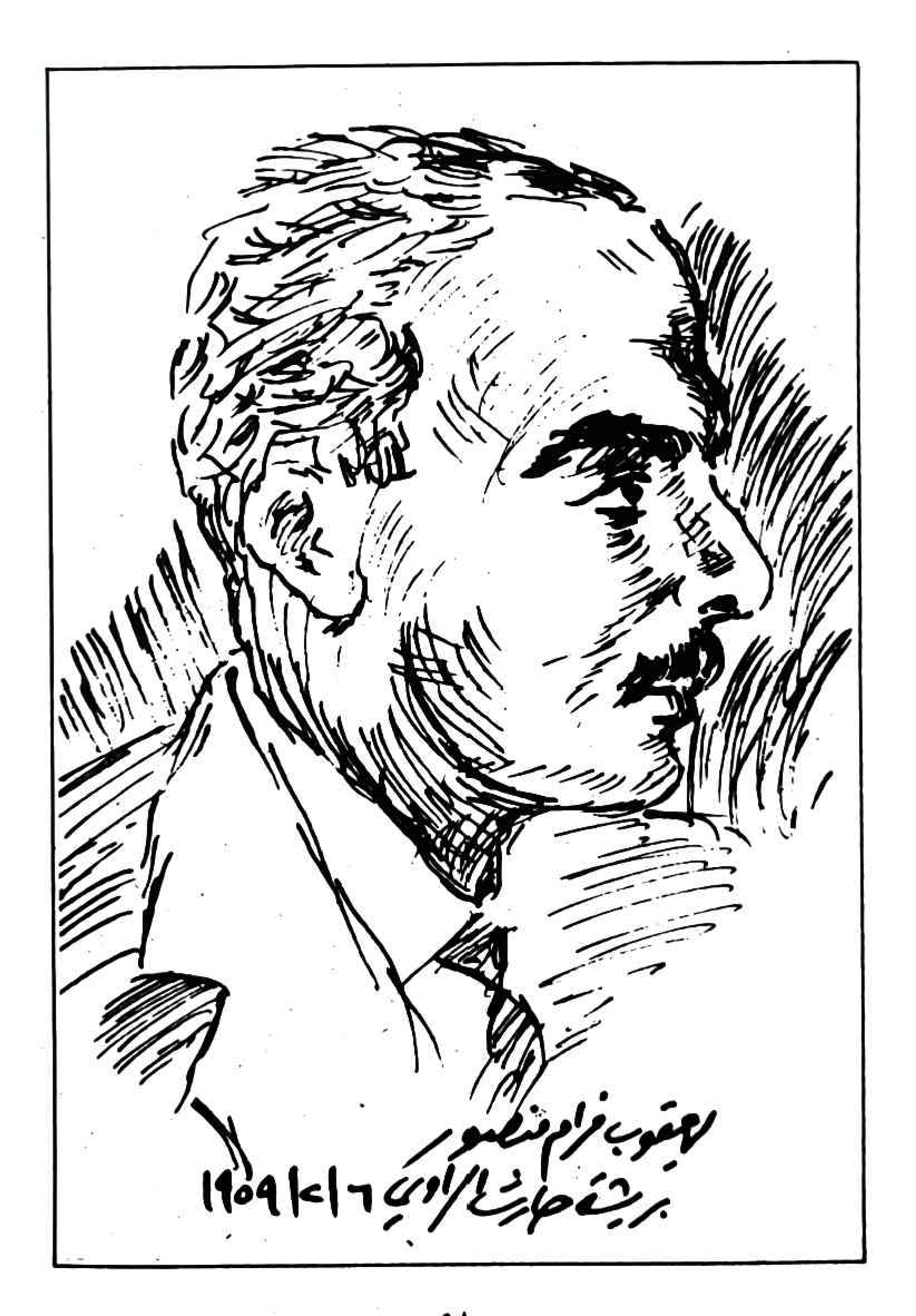
الأخيرة من المرحلة الثالثة. بيد أنّ فيه، مع ذلك، بعض الهنات، وشيئاً يسيراً من القصور، وددت مخلصاً خلوّ مؤلّفك منها كي يكون أقرب إلى الكمال. لكنّ الكمال التام لله وحده. إن ما يشجّعني على ذكر بعض الهنات والتقصير، لهو حبّك الصراحة إلى أحدٍ وجدتك فيه تجلد ذاتك بسياطها اللاذعة، وأنت عارٍ على مشهد من أعين الملأ، خصوصاً في المرحلة الأولى. لذا آمل ألا تسبب لك صراحتي شيئاً من حَرَج، أو قسطاً من كَدَر، ما دامت غايتي الحق، وديدني الصراحة. وقد أكون مخطئاً، فعندئذٍ أرجوك رجاء حاراً أن تناقشني وتقرع الحجّة بالحجّة، وتقنعني بأني على خطأ أو ضلال.

لقد وصفتَ الشاعر (إيليا أبو ماضي) في المرحلة الثانية بأنّ فيه شيئاً من صفات العقرب، كما يملك شيئاً من صفات الحمامة. فماذا بقي من وداعة الحمامة تجاه لسعات العقرب..؟! أعتقد أن هذا النعت المقتضب، والقاسي في آن معاً، لا يعطي صورة حقيقية للرجل. فهذا النعت ـ على ضآلته ـ قد طغى على سائر نعوت الرجل الطيّبة. وبما أني لم أخالط وأعايش الرجل، لا أستطيع مناقشتك في هذه المسألة؛ لكن المعلوم عنه لديّ ولدى غيري أنه كان متصفاً بصفات إنسانية وفيه حرص شديد. فهل نحن مخطئون؟ كنت أودّ أن تدلّل بحادثة أو حادثتين ـ غير التي نظرت إليها من زاوية تأثرك الشخصي ـ لتبرهن على نعته بعقربية في الطبع، فذلك، في اعتقادي، كان أجدى وأسلم. وإني بهذا الصدد، أستشهد بشهادة أحد المحررين الذين زاملوه في جريدة «السمير»، تدلّ على نبل الرجل.

والذي أتذكّر منها، أن محرراً كان قد تشاجر مع (إيليا) شجاراً عنيفاً بشأن ما، فمكثا مدة متخاصمين. ولما عزم المحرر على السفر إلى إيطاليا، دعاه الشاعر، وقال: «علامَ هذه الخصومة بيننا، وإلامَ هذا الجفاء؟ إنّي أعتذر وأرجو حضورك في المُطعم الفلاني لتناول العشاء سويّة». فلما حضرا هناك، أعطاه الشاعر ظرفاً، قائلاً له ألاّ يفضّ الغلاف حتى يكون على ظهر الباخرة. وكان في الظرف مئة أو ثلاثمئة من الدولارات[1].

في المرحلة الثالثة، طالعت الفصل عن جبران باهتمام بالغ، وإذ ذاك خطرتْ في ذهني رسالتي إليك قبل زهاء عشر سنوات، مستفسراً عما دار بينك وبين الريحاني من أخذ وردّ بصدد جبران وكتابك فيه، وذلك غبّ مطالعتي كتاب مارون عبود «أشباح ورموز» الحاوي قطعة كُتبت: «إثر تشاتم الريحاني ونعيمة بخصوص جبران» فكان ردّك على رسالتي أن القضيّة لم تكن من الشتم في شيء، بل كلمة والردّ عليها. أمّا الآن، فقد تسنّى لي أن ألاحظ من ردّك على أمين الريحاني، صراحتك إلى أقصى حدّ ـ وهذا مستحب ـ كما كنتَ قاسياً عنيفاً للغاية، وهذا غير مستحب. وأتيتَ على ذكر عبارة (MAWKISH SENTIMENTALISM) التي أطلقها الريحاني على أدب جبران. هذا التعبير مجحف بحقّ جبران وبمنزلة الأدب،

(١) المبلغ الصحيح مئة دولار. انظر تفصيل ذلك في مقال الأديب الشاعر حارث طه الراوي، المنشور في مجلة «الأديب» اللبنانية، عدد كانون الأول ١٩٦٥، ص ٣٢.


يعقوب أفرام منصور
بريشة حارث الراوي ١٦/٧/١٩٥٩

والريحاني جائر في قوله، وأهل للوم والعتاب والرد عليه. حسناً فعلت بأن كشفت عن ذلك، لكنك لم تذكر فحوى ردّك على أمين في حينه، أي عندما تفوّه بتلك العبارة؛ وهذا ــ حسب اعتقادي ــ على جانب من الأهمية. فهل لذتَ بالصمت حين سمعتها، وكيف كان شعورك آنذاك؟ حبّذا لو تطرقت إلى هذا في معرض كلامك عن جبران والردّ على رسالة أمين.

أمّا اعتقادي في كتابك عن جبران، فقد عالجتُ هذا البحث علاجاً وافياً في عددين متتابعين من مجلة «الورود» اللبنانية لشهري آب وأيلول ١٩٥٨. إني لا أنكر قيمة كتابك في جبران أدبياً وفنياً، بيد أن المنحى الذي نحوتَ في بعض فصوله قد اعتمد الصراحةَ التي لا تتورّع عن التجريح، كما استند إلى الحدس والتأويل، مضحّياً بالحقيقة والواقع في سبيل الأسلوب الروائي الجميل. فالتغلغل في الأحلام والغيب، وخلق تفسيرات شخصيّة، ووضع كلمات تخيّلية عن لسان جبران، أمور لها خطورتها، وغالباً ما تربك المؤلّف، وتحرفه عن جادّة الحق ودرب الحقيقة، ويقيني أنّ الصواب هو في مجانبة هذا المنحى في تآليف السِيَر والتراجم، فطارقه لا يسلم من العِثار والزلل. وإني لمؤمن إيماناً راسخاً أنّ أحداً لو كَتَبَ عنك وفيك، منتهجاً نهجك، مقتفياً أسلوبك، لثرتَ حانقاً، وانفجرت غاضباً، ولثرتُ وسخطتُ أنا كذلك[٢].

---

(٢) يستحسن الرجوع إلى البحث المسهب: «جبران كما كتب عنه لبنانيون وأميركية» في هذا الكتاب.

وفي ذات المرحلة، أتيتَ على ذكر بعض الأشياء والحوادث الهامّة في حياتك، والأشخاص الذين لهم مواقع من نفسك؛ فلم تخصّص شطراً ضئيلاً من مؤلَّفك للذين لك منزلة في أفئدتهم. فأنت ــ يا أستاذنا ــ مثلاً قد أتيت بإسهاب على ذكر النحل وأسراره، ووصفت في أكثر من صفحتين مزايا كلب أخيك، وأوردتَ رسالة تافهة لرجل عجوز بقضّها وقضيضها، لكنّك لم تتطرّق إلى أيّ خطاب وردك من تلامذتك وزملائك الذين يفخرون أن تكون معلّمهم. فهل النحل والكلب والعجوز أفضل وأهمّ من تلاميذك وأصدقائك ومحبّيك إلى حدّ جعلك تهمل ذكرهم، ولو بصورة عابرة، ولهم من تأثيرك فيهم، وتأثيرهم فيك، ما يفوق تأثيرات النحل والكلب والعجوز؟

هذا ما أَنَضْتُ التطرّق إليه، وما حضرني بصدد كتابك «سبعون» باختصار. آمل أن أستلم ردّك[٣] قريباً، خدمة للأدب وحرّية الفكر والحقيقة.

منيتي أن أزور لبنان هذا الصيف. فإن حقّق الله الأمنية، فأنا زائرك حتماً. فحتّى يحين ذلك اليوم، سأعيش مشتاقاً إلى لقياك؛ وحتى يردني جوابك، سأبقى منتظراً.

أختم بإهداء احترامي وسلامي والدعاء لك بالخير والهناء.

المخلص

يعقوب أفرام منصور

---

(٣) لم يجب نعيمة عن هذه الرسالة لأنّه عدّها تخاطبه «من فوق» كما جاء في رسالة لاحقة منه محررة في ١٩٦٤/٥/٨، ومثبتة في الصفحة التالية.

خطاب من ميخائيل نعيمة (٣)

بسكنتا، في ٨ أيار ١٩٦٤.

عزيزيَ السيد يعقوب فرام منصور،

تلقيت رسالتك والنسخة التي تكرّمت عليّ بها من ترجمتك لكتاب جبران (The Wanderer). فالشكر لك. ولأن الأصل الانكليزي ليس في متناول يدي الآن، فأنا لا أستطيع المقارنة بينه وبين الترجمة. على أنني أرجو أن يتسنى لي ذلك بعد حين.

هنالك اعتبارات كثيرة منعتني من الرد على الرسالة المطوّلة التي جاءتني منك قبل سنتين أو ثلاث[١]. وهي لا تزال قائمة. وأهمّها أنك تخاطبني في تلك الرسالة «من فوق»، وتخاطبني في أمور تجهلها كل الجهل، وأعرفها كل المعرفة. إذا تيسّر لك أن تزورني يوماً ما،

(١) يقصد رسالتي إليه قبل أعوام من تاريخ رسالته هذه ــ أعني رسالتي الوارد نصّها قبل هذه الرسالة مباشرة.

فـأشرح لك تلك الأمور شرحاً يجعلك تخجل من أن تقف مني موقف الديّان، لا موقف المشكك المستفسر(٢).

وعليك السـلام وإليك أحسن التمنيات من:

المخلص

ميخائيل نعيمة

□ □ □

---

(٢) أترك للقارىء تفسير جوهر عبارته «تخاطبني من فوق» ليلمس ما تكنّ من أنفة ومكابرة، كوني ــ وأنا الصغير بالنسبة له ودونه مرتبة في عالم الشهرة والفكر ــ قد تجرأت فخاطبته مخاطبة الند للند، مستفهمًا بدافع الوقوف على الحقيقة ــ حقيقة موقفه إزاء ما سمع من أمين الريحاني عن جبران ونعت أدبه. أمّا ما «أجهله كل الجهل..» فكان يستطيع أن يهديني إليه بأسطر موجزة. وصمته عن ذلك في كتابه «سبعون» وعدم البوح به في حينه وفي هذه الرسالة دليل على عدم وجود شيء لديه. أمّا موقفي منه «موقف الديّان» ــ حسب تعبيره ــ فهذا ما يعتقده هو فيّ، وعقيدته هذه وثيقة الصلة بالأنفة والمكابرة اللتين ألمعت إليهما آنفاً.

خطاب إلى جورج صيدح (١)(*)

أخي الأستاذ جورج صيدح ـ باريس،

تحية طافحة بالأريج الأخواني، والشذا الوجداني، تردك إلى ضفاف السين من شاطىء دجلة. عسى أن تلقاك وأنت في سربال العافية وبحبوحة الهناء.

منذ أمد، وأنا أحاول معرفة عنوانك في باريس، لأهديك نسخة من ترجمتي لكتاب «التائه» للمرحوم جبران خليل جبـران، لكنّي لم أوفّق، حتى أتيح لي ذلك الآن، غِبَّ مطالعتي بحثك في مجلّة «المعرفة» الدمشقية لشهر نيسان الموسوم «أدب المهجر في مباذله» وبعد أن أهداني شقيقي سِفرك النقيس «أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية» ـ الطبعة الأخيرة ـ بمناسبة ذكرى ميلادي الأربعين فتمّ لي ما أريد، وها أنا مرسل إليك اليوم الكتاب المذكور «التائه» كهدية متواضعة من معجب بك وبجبران، وشغوف بالأدب المهجري الرفيع.

كان مقالك الآنف الذكر في «المعرفة» ممتازاً ومجدياً بفضل

(*) محرر في ٧ حزيران ١٩٦٦ صادر عن بغداد.

تركيزه وصراحته. أما كتابك «أدبنا وأدباؤنا..» فلم تتسنَّ لي مطالعته بصورة ناجزة، لضخامته ولضيق الوقت. وقد راقني بحثك عن جبران، وتبيان الفارق الكبير بينه وبين نيتشه. بيد أنّي أتردد في قبول قولك قبولاً تاماً، إن نقمة جبران على الناس اضمحلت بعد أن أضحى مرفّهاً موسراً. ويقيني أن الاختمار والنضج العقليين كانا العامل الأقوى في حمله على الإقلاع عن النقمة على الملأ. أما مدى براءة علاقة (ماري هاسكل) بجبران، فإن مجلة «حوار» اللبنانية ــ عدد أيار وحزيران ــ تكاد تؤكّد هذه البراءة إلى حد ما. إنها ــ في نظري ــ علاقة غير ملوثة إلى حد التهتّك والانغماس في الآثام، ولو أنّها في العرف الديني أو الأخلاقي، لا تخلو من إثم. لكنّ عامل الفضيلة والعقل من الطرفين، أوقف العلاقة عند حدّ الاعتدال بين رجل متفنن رهيف الشعور، حار الدم في عنفوان الشباب، وبين امرأة ظامئة إلى الحب وعاطفة الرجل، ذكيّة حسّاسة، تائهة في بيداء الحرمان من الأمومة، والتشوّق إليها وإلى الزوجيّة في محيط التحرر الأميركي.

لقد لاحظت أيضاً أنك تكتب اسم (حلا الظاهر) بخلاف ما كتبه أستاذنا المرحوم مارون عبود: الضاهر ــ بالضاد ــ وأعتقد أنه الأصح. كما لاحظت أنك تستعمل كلمة (فنّان) التي لا يرضى عنها بعض الأدباء كالمرحوم عبدالعزيز البشري الذي يوصي باستعمال (مفتنّ)، بينما المرحوم عادل زعيتر قد استعمل (متفنّن).

كنتُ قد زوّدت المتروبوليت أنطونيوس بشير ــ رحمه الله ــ

مترجم كتب جبران، بنسخة من «التائه»، فوردتني منه رسالة يثني فيها على ترجمتي، نشرت «الأديب» فحواها قبل ما ينوف على العام. كما بعثت نسخاً مهداة إلى «الشاعر القروي» وإلى الأستاذ ميخائيل نعيمة وإلى المرحوم إبراهيم معوّض ـ مدير دار الكتب الوطنيّة ـ وإلى غيرهم.

هذا ما عنَّ تسطيره. آمل أن يكون خطابي هذا استهلالاً لمراسلات أدبية إخوانية، حافلة بالمتعة والفائدة. إني أتطَلّع باشتياق إلى التقائك ببغداد، إذا أتاحت لك الظروف زيارتها. أرجو إنبائي باستلامك الكتاب.

أختم بالدعاء لك بالخير، وبإهداء التحية. ودم عزيزاً للمخلص.

يعقوب أفرام منصور

□ □ □

خطاب إلى جورج صيدح (٢)(*)

عزيزي الأستاذ النبيل جورج ـ باريس،

أنفحك بعبير السلام، وصُوار المودّة، وأتمنّى أن تلقاك سطوري وأنت في سربال العافية، وفي رِسْلة من العيش رغم أنّك قلقال. بلغني خطابك الرقيق المسهب، المحرر في (فيشي)، وأشكرك على عواطفك الجيّاشة، وعلى تواضعك الجم الذي يرفعك كثيراً، وقد ابتهجت جداً باستلام صورتك. سأقصر ردّي على إبداء ملاحظاتي بشأن رأيك الشخصي في ترجمتي لكتاب «التائه»، وعلى ناحية النقمة على البشر في الأدب الجبراني.

ورد في خطابك أن تمسّكي بالترجمة الحرفية «قد أضاع كثيراً من عنصر الروعة والمفاجأة في العِبرة أو النكتة التي ضمّنها جبران كلّ حكاية من حكاياته». وأنّك تمنّيت لو أني حوّرت «الكلام بشكل تبرز فيه النكتة أو العبرة مركّزة مهيمنة على عرشها، تخطف بصر القارىء ولبّه بلمعانها، وتستوقفه أمامها للتفكير والإعجاب».

(*) محرر ببغداد في ١٧ آب ١٩٦٦.

في هذا الصدد، أود أن أعرض أني في ترجمتي، حاولت جاهداً أن أنقل المعنى، الذي قصده جبران، جلياً وبأسلوب أقرب ما يكون إلى الأسلوب الجبراني، وقد شرحت ذلك في مقدّمتي حيث ذكرتُ: «فلم أضحِّ بالمعنى من أجل القوالب البلاغيـة والأساليب البيانية، كما لم أشوّه النص البياني للأصل على حساب المعاني. حاولت جاهداً أن أكون ناقلاً أميناً للمعنى والأسلوب في آن معاً». هكذا نحوت في ترجمتي. إني لم أقلّل من هيمنة العبرة، أو النكتة، ولا من طـاقتهما على خـطف البصر، عمّـا هي عليـه في الأصـل الانكليزي. كما أن التفكير والإعجاب، اللذين تذكرهما، موجودان ومنقولان نقلاً جيداً. ولو رجعتَ إلى الأصل الانكليزي لكل حكاية، لألفيتَ توفيقي في هذا المجال، بمقدار لا يُستهان به ــ ولا إخالك قد فعلت ذلك إما لعدم تيسّر الكتاب في متناولـك، وأنت تصطاف، وإما لعدم حوزتك عليه أصلاً، وعدم قراءتك إياه سابقاً بإمعان. أمّا أن تطالبني بإبراز ما أنصْتَ أكثر من الأصل، فلا أعتقد أن المترجِم مُطالبٌ بشيء من هذا القبيل. فالنكتة الجبرانية، أو العبرة، في الغالب من حكايات «التائه»، لا يفقهها القارىء بيسر ولأوّل وهلة. وأننا لا أقول هذا امتداحاً لعملي، لأنّي أدرك جيداً أنّ من مدح نفسه ذمّها، بل رغبة في تبيان الحقيقة بدون تبجّح وادّعاء ومغالطة. وأرجو أن ترجع إلى ترجمة أخـرى وإلى النّص الانكليزي، كي تتثبّت من صحة قولي، فتنصفني أو تثلمني.

إن مذهبـي في الترجمة لا يحبّذ التصرّف تصرّفاً ينأى كثيراً عن

القوالب الأصليّة التي وُضع فيها الأثر الأدبي النثري، خصوصاً إن كنتُ على معرفة بأسلوب المؤلِّف العربي. أمّا أن أتصرّف إلى درجة كبيرة، كما فعل مترجم «الأبطال» لتوماس كارليل، حتى أجاز لنفسه إيراد أبيات شعرية لم يوردها المؤلِّف، واستعمال كلمات لم ترد في الأصل، فليس ذا من مذهبي في الترجمة، لأنه قصيّ جداً عن الأمانة في النقل، بل هو أدنى إلى التحوير والتحريف اللذين لن أقدم عليهما يوماً في قابل الأيام.

جاء في رسالتك قولك: «لا أوافقك على أن جبران حمل للعالم إحدى الرسالات النبوية، مستهيناً بالمنيّة». أنا لم أنطق بذلك، وإنما عنيت ــ على سبيل الاستطراد ــ الأنبياء الذين أنبتهم الشرق، والرسائل التي حملوها وبشّروا بها، وذاقوا من أجلها صنوف العذابات والتباريح، إذ قلتُ: «**أصداء أو امتداد للرسالات التي حملها وبشّر بها أنبياء المشرق خلالها العصور الغابرة ــ الرسالات التي من أجلها استهانوا بالمنيّة والعذابات...**». يبدو أن مطالعتك مقدّمة «التائه» كانت خاطفة إلى حد أربكك وسبّب لك الالتباس، فخلتَ أني قد عنيت جبران أو ندّه طاغور، بينما كان استطرادي في الواقع دائراً حول رسالات أنبياء ورسل الشرق، خلال العصور السالفة، إلى البشرية.

وقلتَ في نفس الفقرة: «ولا أوافقك أنه شاعر يفضل الشعراء». أنا لم أقل كذلك، بل ذكرت: «وبما أنّ جبران شاعري المفضّل، والشخصية الفذّة التي لها أعمق الأثر في بعث يقظتي الروحية...»

فكلامي إنَّما يفصح عن رأيي وذوقي الذاتيين، غِبَّ أن قرنت جبران بطاغور، إذ ثمة بون شاسع بين قولك وقولي. وقد أكون فاسد الذوق أو وضيعه، فآنذاك أطاطىء هامتي، ملتمساً الصفح ـ وأنت كريم.

أمّا قولك في ذات الفقرة: «الشعر أضعف ناحية في عبقريته». فلست قادراً على تقبّله منك، خصوصاً وأنت الشاعر الحسّاس الملهم. فيقيني أن جبران شاعر في الغالب من آثاره حتى النثرية. فهو بالإضافة إلى منظوماته القليلة الرائعة، شاعر عبقري في «العواصف» و«دمعة وابتسامة» و«الأجنحة المتكسرة» و«النبي» و«حديقة النبي» و«التائه» وحتى «يسوع ابن الإنسان»، وهو فوق ذلك شاعر في رسومه وأفكاره وصوفيته وحواره. إنَّ المسحة الشعرية غالبة على مميزات المؤلَّفات الجبرانية؛ اللهم إلا إذا قصرت الشِعرَ على النظم والقوافي، فآنذاك أكون على خطل في الرأي، وتكون على صواب. لو كانت الناحية الشعرية أضعف النواحي في عبقريته ـ كما تقول ـ لجاءت أعماله التي ذكرتُ آنفاً، خالية من بهائها ورونقها، مجرّدة من عواطفها الحارّة الزاخرة، وأخيلتها الطريفة الساحرة، بل أميل إلى الظن أنها ما كانت لتخرج إلى حيّز النور مطلقاً.

واوردتَ في عين الفقرة أنك لا ترضى عن كلمات أضع لها تفسيراً في الهامش، بدلاً من استعمال الكلمة المفهومة. لا أدري ما أقول في هذا المجال، بيد أنّه رأيك الشخصي الذي أحترم.

وما حملني على فعل ذلك سوى الاقتداء بجمهرة من الكتّاب سالفاً وحاضراً، والشغف الذاتي باستعمال نظير تلك الكلمات لماماً، بدافع من حبّي للغتي، حتى لتجد أنّ الكتاب برمّته مشتمل على طائفة صغيرة منها، لا تبلغ أصابع اليدين عدّاً. أنجعل أمثال هذه الكلمات رهن القواميس والمعاجم، فنحكم عليها بالموت؟ وما هو دور الأديب، إذاً، في هذا المضمار، وما واجبه نحو لغته؟

أما تفضيلك تعبيرك (شعبه حفدة ألف مشرّع) على تعبيري (شعبه أحفاد ألف واضع للشريعة) الوارد في ص ٧٦ من كتاب «التائه»، فأقرّك عليه.

في الفقرة الثالثة من رسالتك، قلت ما ملخّصه إني لم أقبل دعواك بأنّ جبران اضمحلت نقمته على الناس حين أضحى مرفّهاً ميسوراً، وإني أعزو ذلك إلى الاختمار والنضج العقليين، وإنّك ترى أنّ «جميع هذه الأسباب معاً انتزعت من نفسه وقلمه تلك المرارة الموجعة أيام البؤس والحرمان اللذين كانا نتيجتين لكساد كتبه ورسومه، ودليلين على عدم تقدير البشر لمواهبه...». لا أدري إن كان هذا التعليل ينطبق على جبران فقط، أو سواه كذلك، وأي هذه الأسباب أشدّ تأثيراً في طبع بواكير أدبه بطابع النقمة على الملأ؟! فبقدر ما أعلم، لم أعثر على نظير هذا التفسير بخصوص أديب أو متفنن نابغة عداه، يوازيه نبلاً في الأخلاق وسمواً في التفكير. ومما لا ريب فيه، أن جبران لم يكن فريد العصور في إحجام الملأ عن عبقريته، والاحتفال بآثاره الأولى، بل ثمة العديد من نظرائه قديماً

وحاضراً. فهل نفسّر نكرانَهم وعدمَ الاحتفاء بهم، نفس التفسير الذي ذهبتَ إليه في بحثك عن جبران وفي خطابك إليّ، ولا نقيم وزناً للعوامل والظروف الأخرى؟ ولماذا يكون تعليلك الوحيد الذي يعلل تلك الظاهرة في مؤلفك، ويكاد أن يكون أقوى من غيره في خطابك؟ إني في الحقيقة أرى أن النقمة في الأدب الجبراني، وتفسير مسبباتها حسب تفسيرات اعتقدتها أنت، واعتقدها غيرك، شيء مبالَغ فيه. لقد تجلّت هذه النقمة في «الأجنحة المتكسرة» و «يوحنا المجنون» و «مرتا البانية» وقصص «الأرواح المتمردة» وبعض مقالات «العواصف» و «البدائع والطرائف» وأغلب مقالات «المجنون»، والعوامل التي أدتّ إلى بروز ذلك، تكاد تنحصر في سوء تصرفات نفر من رجال الدين، وطغيان الحكّام ومظالمهم، وخنوع الشعب واستسلامهم للحيف اللاحق بهم، وجبروت الموسرين والإقطاعيين وترفّعهم وأَثَرتهم، وشطط الناس عن حياة الطبيعة والقناعة، وانغماسهم في الجهل والسميهاء والملذّات الرخيصة. فأين هذه الدوافع السامية، من العوامل التي فسّرتها وفسّرها غيرك أيضاً، والتي أراها أوهى البواعث ـ إن كان لا معدى عن اعتبارها كما تعتقد؟ أكان من الخليق بجبران ـ وهو المتمرد الرهيف الحسّ، والمتطلّع إلى الإصلاح، والمشرئب بتعطّش إلى الخير ـ أن لا يعبأ بكل تلك البواعث، فينتج أدباً ناشفاً ضحلاً تافهاً، خالياً من الثورة والنقمة والتمرد على (فرقاء) من الناس، ومجرّداً من الاشمئزاز من البلادة والجهل والزيغ، ليأتي مؤرخو الأدب بعد جيل أو جيلين، ليقولوا: إن جبران لم يتحسّس مصائب

قومه وآلام عصره؟! أم يجدر بمؤرّخي الأدب في هـذا القرن أن لا يعيروا الدوافع الإنسانية الحقيقية للنقمة أي اهتمام، وأن يتغاضوا عن النزعات الشديدة الكامنة ـ في الأديب والكاتب والشاعر ـ نحو الخير والإصلاح؛ فيطلعوا علينا بتفسيرات وعلل نفعية أنانية لدى المؤلِّف، تجانف الواقع والإنصاف؟!

أمّا ظنّك بأني قد استغرب جرأتك عليّ في أول رسالة منك، وقد أتّهمك بقلّة الحياء، فمعاذ الله أن يتبادر ذلك إلى ذهني، ويخامر نفسي؛ طالما كان ديدني تفضيل الحق على سائر الاعتبارات، وطالما كان أسلوبك خالياً من المظاظة، وما دمتَ لديّ من أهل ثمّي ورمّي. صانك المولى ذخراً للحق، كالصلهام، وجعلك بين قوم الأدباء ومؤرّخي الأدب من صيّابتهم، وبين معشر الشعراء من رتوتهم، وأتمنى أن تزدهر صداقتنا الفكرية والروحية. ودم عزيزاً معافى، برعاية الرب.

لأخيك الوفي أبداً
يعقوب فرام منصور

□ □ □



خطاب إلى روح جبران(*)

سلام عليكِ أيتها الروح الشاعرة أنّى كنتِ. سلام عليكِ في أي منزل من الخلود نزلتِ. سلام عليكِ في مستقرِّكِ أو مطافكِ، في ضيقكِ أو انفراجكِ، في كربتكِ أو دعتكِ.

تحيّة لكِ يوم حللتِ ويوم انعتقتِ. يوم تجسدتِ بدن الوليد في (بشرّي) بجوار الأرز وفم الميزاب، ويوم انطلقتِ من أسار الجسد المضني قرب ناطحات السحاب.. بين العجلات والدواليب، بين الصخب والضجيج. تحيّة لكِ في ذكرى انفكاكك، نائية عن موطن الأحلام، قصيّة عن ربع آصرتكِ، ومرتع صباكِ، ومسرح أخيلتك.

أيتها الروح المرهفة الشاعرة. أيتها الروح المبدعة المفتنة. أيّتها الروح الحالمة المفكّرة. كيفَ هو عالمكِ يا روح جبران؟ هل عثرتِ على رؤى شبيهة بتلك التي حلمت بها أيام وجودك على كوكبنا؟ هل نلتِ أمنية من أمانيكِ حين كنتِ بين ظهرانينا؟ هل ستعودين إلينا في

(*) نشر هذا المقال في مجلة «الورود» اللبنانية لشهر نيسان ١٩٦٧.

جسد آخر تتقمّصينه كما اعتقدتِ؟ هل تفضلين مكوثكِ حيث أنتِ في دار البقاء، أم الأوبة إلى دار الشقاء والفناء ـ لو خُيِّرتِ في ذلك؟

طائفة من الأسئلة، يطيب لي توجيهها إليكِ، رغم يقيني بعدم حظوتي بردٍ من لدنكِ. فقد سبقني الخيّام إذ قال:

وليس ممّن فاتنا عائد
أسأله عن حالة الراحلين

لكنّه اشتياق إلى استكناه المجهول، وقد يزاح النقاب الصفيق عن المستور والغامض في رؤيا من رؤى المنام وتخاطب الأرواح.

أيّتها الروح.. روح جبران: هل أحطت علماً بآراء الأنام في ما خطّت يراعتك وأبدعت ريشتك على أرضنا؟ إطمئن.. فمحبو أدبك وفنّك في تزايد، ومناهضو أسلوبك في تضاؤل. والشغوفون بقراءتك ـ بعد ثلث قرن من رحيلك عنا ـ هم أضعاف ما كانوا يوم كنت حياً. سيزداد المعجَبون باضطراد، ويتعاظم معتنقو أفكارك باستمرار. سيتضاءل المناهضون والنافرون والناقمون كلما دارت عجلة الزمان. يكفيك فخراً أن تردّد البرايا اليوم: «المنحى الجبراني، الأسلوب الجبراني، جبراني الميول، جبراني الأفكار».

أيتها الروح الشاعرة: يا محيّة الأنبياء والرسل والعظماء..

أيتها الروح المتفنّنة، يا عاشقة الفضيلة والمثل العليا..

أيّتها الروح الرهيفة، الهائمة ببهاء الكلمة، وبجمال العواطف..

فلتهطلْ عليكِ شآبيب رحمة الرحمن في ذكرى انطلاقكِ . .

ولتتدفّق نحوكِ تحيّات أفئدتنا وأرواحنا في ذكرى انعتاقكِ وخلودك .

□ □ □

المحتـــوى

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٥٦٦ لسنة ١٩٨٥

سعر ـــر ١ دينار

صمم الغلاف : لبث متي

مطبعة الانتصار - خالد البريوني - بغداد

المكتبة العالمية
بغداد - شارع السعدون
هاتف ٨٨٨٩٣٥٢